يوسف عماد

مشفى ليقان

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

مشفى ليڤان

يوسف عماد

الطبعة الأولى: 2026

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

الرواق
للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com

الإخراج الفني: ياسمين يحيي
التدقيق اللغوي: أسماء أبو المجد
الترقيم الدولي: 978-977-824-343-7
رقم الإيداع: 36964/ 2025

ART_OF_BOOK

إهداء

لم يبقَ منك شيء.. سوى كل شيء.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

شتاء القاهرة ١٩٤٩

مشفى للأمراض النفسية في أطراف المدينة يحيطه الفراغ من كل الاتجاهات.

الليل يطبق على المشفى كغيمة سوداء، شتاء قاسٍ.. المطر يجلد النوافذ الزجاجية بعنف وتتمايل أغصان أشجارها كأصابع تريد أن تخنق السماء، الرياح تصفر في الممرات الطويلة، كأنها أصوات أرواح حُبست هنا منذ زمن.

في الطابق الثالث، حيث جناح أحد المرضى، جلس أحدهم على سريره، ساكن الجسد، عيناه مثبتتان على الحائط، كمرآتين تنعكسان على شيء آخر؛ شيء ليس من عالمنا، غريب وبعيد.

قبل أن تنطلق ضحكات صاخبة من صدره، انفتح الباب بهدوء، لتدخل الممرضة، شابة لم يطل عهدها في المشفى، تحمل كأس الماء وجرعة الدواء المعتادة.

عيناها تتنقلان بين المريض والحائط، شعرَت بثقل الهواء بالغرفة، وبتلك الهمسات التي تخترق العقل مباشرةً.

اقتربَت منه، مدت يدها بالدواء، ليلتقطه المريض، لكنه لم يبتلعه، تحرك من مكانه وانتقل بانسيابية تجاه الحائط.

في تلك اللحظة بدأ التيار الكهربائي في الارتعاش قبل أن ينقطع، تسلل ضوء القمر من النافذة ورسم بؤرة مضيئة حول المريض، المشهد أصبح لوحة لفنان مسرحي قبل أن يبدأ في عرضه، استخدم الحبوب الحمراء كطباشير وبدأ يرسم بيديه المرتجفتين، أصابعه

ART_OF_BOOK

بدأت تخط بعنف، تنقش لا تكتب، رمزًا لدوائر متقاطعة وغامضة تتوسطها عين مشوهة تحدق في كل شيء، اخترقت العين روح الممرضة، هناك شيء في داخلها ارتعد، كأن عقلها يعرفه، أو كأنها رأته في كابوس قديم.

قالت بصوت مبحوح.. متردد:

- إنت بتعمل إيه؟

صوته خرج أجوف وكأنه تشارك فيه أكثر من شخص، وبابتسامة هادئة قال:

- هي هنا... وشايفانا!

تراجعت خطوةً إلى الوراء، يداها ترتجفان، وعيناها تبحثان عن زر الاستدعاء على الحائط، ولكنه لم يُعطِها فرصة.

ارتفع جسده في الهواء، كان جسده النحيل يفيض بطاقة هوجاء، اندفع باتجاه النافذة، كانت هناك طاقة خفية تتلاعب به في الهواء، زجاج النافذة ارتج، ثم تحطم مع ارتطام جسده به، الممرضة بدأت في الصراخ، لكن صوتها تشتَّت وضاع في الريح، رأته للحظات مُعلَّقًا في الهواء يتفحصها في تعجب، تمايل برأسه قبل أن يسقط جسده في العراء، ارتطم بالأرض، واهتز المبنى كله.

في الغرفة بقي الجدار شاهدًا وحيدًا على ما جرى.

الرمز المكتمل، خطوطه تنزف من الدم الذي سال من أصابعه، الدوائر تتوهج، كأنها لا تريد أن تخبو.

ART_OF_BOOK

الممرضة التصقت بالباب، أنفاسها متقطعة وعيناها مُسمَّرتان على الحائط.

حين هرع الأطباء والتمريض إلى الغرفة، رأوا الممرضة قد انهارت على الأرض، تشير بأصابعها تجاه الرسمة التي ظهرت كقلبٍ ما زال ينبض، وإلى النافذة، عاجزةً عن الكلام، تشير فقط مع دموع تأبى أن تخرج من عينين مرتعبتين.

في تلك الليلة فُتح باب لم يكن ينبغي له أن يُفتح، في تلك الليلة بدأ كل شيء...

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

شتاء القاهرة ٢٠٢٢

السيارة الأجرة تتلوى في طرق جانبية، أجلس بجانب النافذة، الهواء البارد كان يجرب سكينة على خدي، أحمل ملفًّا بلاستيكيًّا رخيصًا فيه شهادتي وصورة باهتة لي، وسيرة كتبتها في ليلة دون نوم، يملؤها الكذب كما يملأ كل شيء، كتبت بها أني متفوق، أحب البحث، اجتماعي للغاية، وأني أومن بأن المرض النفسي ليس عارًا إنما نافذة لتلك الجروح التي لم تلتئم، لم أكتب أني أخاف الظلام، أني لم أحب التلامس يومًا فأنا لا أجيد الأحضان، وأن ما قادني إلى دراسة الطب النفسي هو محاولة فهم كل هؤلاء المرضى في كل مكان، حتى هنا... كل ركاب تلك الحافلة يعانون أمراضًا نفسية، ذلك الرجل الملاصق بي يعاني مبدئيًّا اضطرابَ الاحتكاك الجنسي، يسترق اللمسات من تلك الفتاة بجانبه من الجهة الأخرى، متحججًا بحركة السيارة وترتسم ابتسامة خفيفة على شفتيه كلما أحرز هدفًا جديدًا، هذه طريقته في إفراز بعض الدوبامين الرخيص لديه، أما الفتاة فتعاني جمودًا توتريًّا، عيناها جاحظتان، وتحتضن نفسها بيديها ولا تبدي أي ردة فعل على ما يحدث، فقط صدمة، وربما أيضًا تعاني كربًا حادًّا بعد كل مرة تتعرض فيها لذلك الموقف، فتزورها الكوابيس وتسترجع تلك المعاناة على هيئة "فلاش باك" مؤلم.

رفعت صوتي للسائق حتى يتوقف: "على جنب يا سطا"، طلبت من ذلك الرجل النزول أولًا حتى يتسنى لي النزول بعده، وعندما ترجَّل كلانا من السيارة، تصنعت أني أخطأت في المكان المقصود، أبدى السائق غضبه بأني قد أضعت وقته الثمين، اعتذرت منه في أدب وعدت مرة أخرى للصعود بسرعة قبل ذلك الرجل وتبدلت

ART_OF_BOOK

الأماكن، وضعت الملف بيني وبين الفتاة، ولم يُزِح عينيه عني طوال الطريق بغيظ بعد أن أبعدت عنه فريسته، تأفف كثيرًا وألقى ببصره من النافذة في محاولة لاسترجاع ذلك الشعور عبر التخيل، كتمت تلك الضحكة وأنا أشكر نفسي على تلك المناورة، وبعد لحظات تلاصق بي أنا، صرخت فيه أن يبتعد قليلًا -والكثير خيرٌ منه- حتى يتسنى لي الجلوس بأريحية، لا أتذكر ما تعريف تلك الحالة الآن، ولكني متأكد من أنه "ابن كلب"!

حين وصلت إلى وجهتي كان لا بد من السير على الأقدام مسافةً ربما تصل إلى كيلومتر، المشفى خرج من الضباب فجأة، كتلة خرسانية على تلة منخفضة، هيئته تشبه أحدًا وضع حجرًا ثقيلًا على صدر الأرض ليجبرها على أن تتنفس بتمهُّل، أشجار قليلة تتمايل، زجاج النوافذ يلمع في الظل وبينها ممرات خارجية أراها من هنا، أحدهم كان يتفحص ذاك الزائر الجديد، كان يلوي رأسه، ورغم بُعد المسافة فإني أستطيع أن أرى شعوره بالتعجب، وله الحق في أن يتساءل: من ذلك العاقل الممل الذي أتى ليفسد علينا صفو حياتنا؟

دفعت باب الاستقبال، المكان يتنفس رائحة مطهر وخشب رطب وكهرباء قديمة، الضوء فلوري، أبيض أكثر مما ينبغي، يفضح الغبار المتطاير كنجوم ميتة، موظفة الاستقبال رفعت رأسها وهي تحاول ترتيب الأوراق برتابة.

- صباح الخير.

- أهلًا.

ART_OF_BOOK

تطلعت إلى الملف في يدي:

- حضرتك مقابلة؟

ضمت شفتيها في حسرة، وأشارت إلى الممر:

- ادخل هنا، هتطلع السلالم لغاية الدور التاني، أول باب على اليمين، استنى في الاستقبال لحد ما حد ينادي عليك.

رددت بـ"شكرًا"، ومضيت في اتجاهي، السلالم ضيقة، ملمس الدرابزين بارد، كأن أحدًا لمسني على عجل، على الحائط لوحات قديمة باهتة لمصورين هواة، وبحر، وسفينة بعيدة، وسماء مشرقة يملؤها الطير، لا أعلم كيف لهم أن يظنوا أن تلك الصور تجلب الراحة، السكينة الزائدة قادرة على إخراج منك كل الانفعالات التي لم تُخرِجها يومًا ما، ستصرخ على ما فاتك، تضغط على أسنانك بقوة وتغلق عينيك عند تذكُّرك أحد المواقف المحرجة، وترد بأسوأ الألفاظ على ذلك الشخص الذي ترفعت عن الرد عليه يومًا ما، فالمصور في تلك اللحظة بدلًا من أن يترك عقله لكل تلك الاحتمالات التقط كاميرته وانشغل بتوثيق المشهد، حتى يخدع عقله.

الصالة فسيحة نسبيًّا، بها مقاعد معدنية متقابلة، رجل أربعيني يحدق في الأرض وامرأة مسنة تهمس إلى نفسها بكلمات متقطعة؛ ممرضة تمر بسرعة؛ تحمل صينية دواء، عيناها متعبتان ولكنهما ثابتتان، جلست أحاول أن أرتب نفسي، أفتح الملف، أتأكد من ترتيب الأوراق، أصوات خفيفة تصل إليَّ من جناح بعيد، الباب يُفتح ويُغلق، حوار مبتور، ضحكة مجاملة، ثم صمت، وفي الصمت اتسعت الغرفة عليَّ بعد أن

ART_OF_BOOK

فرغت من الجميع.

أتذكر أبي وهو يناولني معطفه القديم صباحًا: "خد ده معاك الدنيا برد"، رائحته عالقة في الياقة، تبغ خفيف وماء كولونيا رخيصة، لم أكن مرتاحًا في معطفه، لا أتذكر متى أصبح جسدي بتلك الضخامة، أصبحت أشبه بمصارع معتزل في عمر الأربعين، لكنه على كل حال يطمئنني، لماذا أتذكر أمي الآن؟! صورة مُشوَّشة؛ لا أتذكر إلا فستانًا أخضر يسير وحده في ممر البيت ولافته صغيرة نحاسية على شنطة قديمة، وصوت باب لا يُنسى أبدًا، اسمي يناديني من الداخل "نديم".

- دكتور نديم؟

رفعت رأسي، رجل طويل، نحيف، شعره يميل إلى البياض.

- أيوه أنا.

- اتفضل.. دكتور عدنان مستنيك.

سبقني إلى الغرفة، دفع باب المكتب، غرفة واسعة، مكتب خشبي ثقيل، مكتبة ممتلئة بالكتب، التي لم يقرأها أحد، براويز تحمل شهادات لا قيمة لها، بعد الدورات التدريبية التي لم يحضرها ومؤتمرات الفائدة الوحيدة منها كانت الغداء الشهي وقت الاستراحة، كل هذا فقط لتأكيد مشهد السلطة والعلم، خرج من حمام صغير، يُنشِّف يديه، وبصوت منخفض: "اتفضل يا نديم".

هززت رأسي في احترام، انتظرته حتى جلس على كرسيه وجلست أمامه، مددت يدي

ART_OF_BOOK

بالملف.

ارتدى نظارته، وتفحص الأوراق، رجل خمسيني، تظهر عليه علامات العجز قليلًا، تجاعيد قليلة لكنها حادة، وصلع جزئي في منتصف رأسه.

- لسه متخرج؟

- أه بالظبط.

يهز رأسه، ينقر على سطح مكتبه بإصبعيه نقرًا لا معنى له في مشهد ما قبل السينما.

- ليه الطب النفسي؟

قاعدة مهمة: "اختر دائمًا أقصر كذبة وأقربها إلى الحقيقة".

- لأني شايف إن العقل آخر أمل نعيش عليه في الدنيا دي.

- إزاي؟!

- العقل هو آخر مكان بنلجأله لما الدنيا تبقى صعبة، لو المكان ده حصل فيه خلل وبقى خطر، مبيفضلش مكان تاني للمريض... بيبقى دخل الجحيم بس بدري شوية، حتى في الجحيم بيبقى فيه ناس بتشاركك، لكن جوه عقلك إنت لوحدك، عذاب صعب أوي، يمكن لما أساعد حد المكان ده يبقى أمان، أبقى بساعد نفسي أنا كمان إني أكون في أمان.

ART_OF_BOOK

يبتسم قليلًا، لا يعجبه الجواب ولا يرفضه.

- المكان هنا صعب شوية، كل اللي درسته حاجة وأرض الواقع حاجة تانية، المرضى هنا مختلفين، مستشفى ليڤان بيجيلها دايمًا الحالات المستعصية على كل المستشفيات التانية، نصيبك إنك تبدأ من الأصعب، بس ده هيديك خبرة كبيرة، هتبدأ تدريب شهر وبعدها هناخد قرار، وأنا واثق فيك.

- شكرًا جدًّا يا دكتور، أقدر أبدأ من إمتى؟

- من بكرة، أشوفك الساعة ٩، في التدريب هتقضي يوم وردية الصبح ويوم بالليل.

يقف، فأقف، يمد يده، حرارته أقل من المتوقع:

- أهلًا بيك في ليڤان.

خرجتُ من المكتب، الضوء أصبح أفتح قليلًا، أو هكذا توهمت، مشيت كما أتذكر، بدأت أفكر في مستقبلي هنا، ربما سأستمر هنا لسنوات تُضاف إلى ذكريات حياتي القصيرة، كان الممر ساكنًا، صوت المصباح فوق رأسي يئن كأنه يشيخ، توقفت ومرَّ بصري عليه للحظة قبل أن يصمت ويظهر صوت نقرات كعب صغير يتردد على الأرض الرخامية، في نهاية الممر ظهرت تلك الفتاة الصغيرة، فتاة في عامها الخامس أو السادس، بفستان زهري اللون وشعر طويل، أشرت إليها في ود مع ابتسامة، قبل أن أتذكر ماهية ذلك المكان، فمن الخطر وجود طفلة صغيرة وسط تلك العنابر التي تحمل بداخلها مرضى قادرين على إيذائها، بدأت أهرول في اتجاهها، أُصدِر أصواتًا بفمي وأشير إليها بيدي، أحاول الوصول، أسرعت أكثر فأصبحت أركض، لا أذكر أن

ART_OF_BOOK

هذا الممر كان بهذا الطول، لم تُصدِر أي فعل طوال تلك المدة، ولكنها في النهاية استدارت ومشيت بخطوات محسوبة ناحية اليمين، أسرعتُ أكثر فأكثر حتى بدأت ألهث من التعب، حتى وصلت، وقفت ألتقط أنفاسي بسرعة ورفعت نظري لأرى ذاك المشهد.. حائطًا أصم، لا أثر لها، جررت عينيَّ إلى الجهة الأخيرة فلم يكن إلا حائط أصم آخر، ومقابلي لم يكن سوى سور منخفض يصل إلى صدري، وخلفه باحة صغيرة غارقة في الضباب، أطللت بحذر وقلبي يطرق ضلوعي.

كانت هناك.. الطفلة.

تمددَت على الأرض بزاوية غير طبيعية، شعرها مفروش على البلاط مثل بقعة حبر، والفستان الزهري صار أحمر، الدم يسيل ببطء في خطوط رفيعة تتلوى حولها حتى شعرت بأنه لامس حذائي.

في تلك اللحظة لم أشعر بالهلع، فقط سكوت يشبه الصمم، شعرت بأن رأسي انقطع عن جسدي.

لم أفكر في شيء.. فقط ركضت ناحية الدرج المعدني الجانبي الذي يؤدي إلى الفناء السفلي، كنت أهبط بسرعة، قدماي تصطدمان بالأرض ويداي تمتدان تلقائيًا أمامي تزيحان الهواء.

لأجدها...

فارغة..

ART_OF_BOOK

لا طفلة..

لا دماء..

فقط نفس البقعة، نظيفة تمامًا، كنت واقفًا أتنفس بعمق، تلفَّتُّ حولي كالأحمق الذي يبحث عن دليل جريمة لم تقع.

تمتمت لنفسي: "أكيد تعب.. يمكن تخيلت، ضغطي واطي!".

وصلت إلى البيت عند السادسة والنصف تقريبًا، فتحت الباب، قفز سند باتجاهي سريعًا يهز ذيله كأنه يقول: "رجعت!".

أبي كان يجلس على الكنبة العتيقة أمام التلفاز، انتبه لي، صوته دائمًا هادئ كالموسيقى التي لا تثير أحدًا.

- اتأخرت يا نديم.

- الطريق بس.

- عملت إيه طمني.

جلست بجانبه، خلعت معطفي، وقلت وأنا أتنفس بعمق:

- اتعينت، هبدأ من بكرة تدريب شهر.

أمسك بوجهي وبابتسامة راضية:

- ربنا يوفقك، شِد حيلك وبلاش جنانك يأثر على المجانين كفاية اللي هما فيه.

ART_OF_BOOK

ضحكت دون صوت وهززت رأسي:

- نحتفل بقى، هعملك أكل بتحبه، طاسة سجق بالجبنة.

- ده شكله يوم حظي.

بعد ساعة جهزت السفرة الصغيرة، جلس أمامي، أكلنا في صمت، كنت أتطلع إليه بين الحين والآخر، وجهه مجعد لكن مطمئن، يده ترتجف قليلًا ولكني دائمًا أرى به ثقة مَن اعتاد الهزائم كلها.

بعد العشاء جمعت الأطباق وغسلتها، ودخل أبي إلى غرفته، وقال قبل أن يغلق الباب:

- تصحى بدري بكرة، أول يوم بيحفر انطباع مهم.

دخلت غرفتي وأغلقت الباب، جلس سند بجانبي على السرير، مرَّرت يدي على رأسه، عيناه ثابتتان عليَّ، يحثني على الكلام، دائمًا ما أُفضِّل الحديث مع سند فهو لا يقدم الحلول.

- كان يوم غريب... هو أنا كبرت إمتى؟ شغل ومستشفى ودكتور، إنت فاكر أول ما إنت جيت أنا كنت عامل إزاي؟! عيل، عيل بس، لا دكتور ولا غيره وكل ده حصل فجأة، أنا حاسس إن فيه سنين أنا مش فاكرها، عمر كامل اتمسح نسيت أعمل فيه ذكريات!

وضع رأسه فوق فخذي، ونظر إليَّ في محاولة للمواساة.

ART_OF_BOOK

- وغالبًا الجنان طلع مُعدي، شُفت حاجة غريبة، الهلاوس ابتدت بدري أوي، أنا كنت مخطط إني أتجنن على الخمسين مثلًا!

وضع يده عليَّ عدة مرات، ونبح نباحًا خفيفًا كأنه رسالة: "احترِس".

- حاضر يا صاحبي.

اتكأ على ساقي وبدأ ينعس، أما أنا فبقيت أُحدق في الفراغ كعادتي كل يوم وأتساءل: "ماذا لو..."، حتى غفوت.

استيقظت في اليوم التالي قبل المنبه بدقائق، كأن جسدي كان يترصد الوقت ليوقظني.

لم أتناول إفطاري، احتسيت قهوتي، أريد لكل دماء جسدي أن تنتقل إلى عقلي، اتجهت إلى المشفى، وعند البوابة الحديدية اعترض طريقي الحارس:

- أيوه يا هندسة.

- هندسة؟ أنا دكتور نديم شغال هنا في المستشفى.

- حضرتك جديد هنا؟

- أه أول يوم.

- ممكن الكارنيه؟

- بقولك أول يوم.. هطلَّع كارنيه إمتى؟!

ART_OF_BOOK

- طيب ثواني.

أمسك بهاتفه موديل ١٨٩٠ قبل الميلاد، بدأ بضغط الأزرار ببطء ممل، وبعد لحظات شعرت فيها بأني أريد أن أُسرِّع المشهد من جهاز التحكم، سمح لي بالدخول مع كلمة "لا مؤاخذة الأوامر.. ربنا معاك".

كلمة "ربنا معاك"، خرجت منه بنغمة مختلفة، كأنها توصية لا دعاء!

الاستقبال كان فارغًا إلا من موظفة وصوت ماكينة تصوير تصدر طنينًا متقطعًا، دوَّنَت اسمي في دفتر الحضور، ثم أشارت لي:

- دي أوضة الدكاتره.. حضرتك هتبقى هناك لغاية ما أحضَّرلك ورق الحالات.

دفعتُ الباب، كان نصف مفتوح.

رأيتها جالسة خلف المكتب، تقلب في بعض الأوراق، رفعت رأسها فور أن سمعت الباب، وقالت بابتسامة:

- أهلًا.. دكتور نديم صح؟

- أيوه، صباح الخير.

- مبروك التعيين، أنا دكتورة نادرة ولسه بادئة هنا من حوالي أسبوع، يعني لسه هنكتشف المكان سوا.

جلستُ أمامها فمدت إليَّ كوبًا من القهوة وقالت:

ART_OF_BOOK

- هما هنا بيعملوا القهوة وحشة أوي بس بتفوَّق بصراحة، اتفضل.

- شكرًا أنا شربت قهوتي.

كان في ملامحها صدق لا يحتاج إلى دليل.

ملامح فتاة ما زالت في بداية الطريق لم تكتشف بعد أن تلك الحياة ليست للمبتدئين.

اقتحمت موظفة الاستقبال الغرفة، وقالت وهي تسلمنا الأوراق:

- دكتورة نادرة هتعرَّف حضرتك على الأقسام والمرضى، ودي ملفات المرضى اللي حضرتك هتكون مسؤول عنها.

نهضت نادرة، وتناولت معطفها الأبيض وارتدته.

- جاهز؟

ابتسمتُ مجامَلةً لحماسها.

- جاهز.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الفصل الأول

حين يرقص الموت

خرجنا معًا، سبقتني بخطواتها المُحمَّلة بطاقة يشعر بها كل مَن يقترب منها؛ انتهت خطواتها عند إحدى الغرف وقامت بعدِّ الأوراق إلى أن وصلت إلى الورقة المستهدفة وأعطتني إياها.

اسم المريض: حسن الديب.

التشخيص المبدئي: هلاوس سمعية.

تأنَّينا عند الباب للحظة قبل الدخول، أزاحت خصلات شعرها خلف أذنيها، تبدلت تعابير وجهها؛ أصبحت صارمة وحادة.

- حسن حالته غريبة شوية، بيتهيألّه إنه بيسمع موسيقى، وبيرقص عليها لوقت طويل لغاية ما في لحظة الموسيقى بتقف بالنسبة له وبيبدأ في حالة هياج، بيضطرنا أوقات إننا نديله Haloperidol وDiazepam عشان يهدى بعد محاولات كتير، هو كان عازف كمان مهم زمان، وبدأ يبطل شغل تدريجي لغاية ما وصل للحالة دي وأولاده جابوه هنا، مستنيين نشوف شغلك يا دكتور.

ضحكتُ ضحكة متقطعة:

- إنتِ بقالك أسبوع يا دكتورة.. إنتِ ليه محسساني إنك من المؤسِّسين!

ART_OF_BOOK

ضمَّت الملف إلى صدرها وهزت رأسها:

- بس أقدم منك.. متنكرش!

دفعت الباب بخفة وقالت قبل أن تعبر العتبة:

- صباح الخير يا أستاذ حسن.

رجل عجوز يجلس على الكرسي بجوار النافذة، ظهرة محنيٌّ قليلًا، عيناه ساكنتان، لا تستقران على شيء محدد، كأنهما تحاولان تذكُّر شيء لا نهاية له.

رفع رأسه نحونا بابتسامة صغيرة، وقال بصوت خافت لكنه واضح:

- أخيرًا جيتوا، أنا من إمبارح قاعد لوحدي.

اقتربت منه نادرة بخطوات حذرة، وأشارت لي أن أجلس على الكرسي المقابل.

قالت بلطف مهني:

- إحنا موجودين دايمًا، إنت كنت مضايق وإنت لوحدك؟

- أنا متضايق من السكوت، الأوضة هادية بزيادة.

- يعني إنت مسمعتش أي حاجة من إمبارح؟

- هسمع إيه، خطوات اللي ماشيين بره وبس!

- ودلوقتي مش سامع حاجة؟

ART_OF_BOOK

- لأ، سامعك.

تنهدت نادرة في حذر وتبادلنا النظرات، قبل أن أبدأ أنا في الحديث.

سألته:

- أنا سمعت إنك كنت بتعزف حلو أوي، بس بطلت من زمان، إيه السبب؟!

- أنا مكنتش بعزف بس، أنا كنت فنان.

- يا سلام للدرجة دي!

- وأكتر، أنا كنت بحب الكمان أكتر من عيالي، صعب تصدَّق ده بس فعلًا كنت بحبه أكتر منهم، ده كان أول هدية تجيلي من أبويا الله يرحمه، أول ما شُفته قعدت أعيط وأصرخ، إيه اللي إنت جايبهولي ده، أنا عايز لعبة، رد عليا وقتها وقالي استنى لما تتعلمه وبعدها قولي رأيك، ولو معجبكش هجيبلك أكبر لعبة في الدنيا، وبس... عجبني ومخدتش اللعبة، سنين طويلة، كنت بتكلم بيه، أفرح بيه، أغضب بيه، أحب بيه.

شردت عيناه في السماء من النافذة:

- فضلنا سنين بنطلَّع فن لغاية آخر نوتة اشتغلت عليها دي كانت أحلى نوتة ممكن تسمعها في حياتك.. سحر، قادرة تخلع قلبك من مكانه وإنت مبسوط وراضي، ترقص عليها لحد آخر نفس في عمرك، بس...

تردد للحظات، فتدخلت لتشجيعه على إكمال حديثه:

ART_OF_BOOK

- بس إيه؟

رفع وجهه نحوي، عيناه تملؤهما الدموع.

- بس مكملتش.

- ليه.

ضمَّ شفتيه وهز رأسه في رفض.

لم أرِد أن أكمل الضغط عليه، يكفي ما استمعت إليه اليوم، وعليَّ أن أكمل معه غدًا.

أشرت إلى نادرة برقبتي للخروج، وقبل أن أقوم من مقامي، أمسك بيدي، وبدأ الابتسام في فرحة وما زالت الدموع تملأ عينيه:

- سامع يا دكتور؟

كنت أسمع فقط صفيرًا خفيفًا صادرًا من المكيف، لا أكثر.

- سامع إيه؟

- العزف بدأ.

في اللحظة التي قال فيها الجملة، شيء ما في الغرفة تغير، هواء خفيف مرَّ بيننا.

استقام حسن ومدَّ ذراعيه يستعد لاحتضان الغياب.

ART_OF_BOOK

قال بصوت مرتجف، لكنه مفعم بنشوة غريبة:

- قلتلك إنها أحلى حاجة تسمعها في حياتك.

ثم بدأ في الرقص، جسده يتحرك كأنه يخشى إيقاظ شيء نائم، كمن يتذكر الرقصة بعد غياب طويل، ثم تسارعت خطواته، صار يدور حول نفسه، يضحك ويغمض عينيه ويشير بيديه كما لو أنه يعزف على كمان غير موجود، ضحكته اخترقت الغرفة، ضحكة سعادة حقيقية لكنها مؤلمة.

التفتت نادرة إليَّ، وأشارت لي بالابتعاد، ثم لوحت بيديها إلى الممرضين خلف النافذة الزجاجية، فتحركوا بلا جلبة ووقفوا ينتظرون عند المدخل.

أما أنا، فكنت قد كففت عن رؤية الممرضين، والضوء الأبيض صار باهتًا، والجدران تتموج كأنها مصنوعة من هواء سائل.

خلف حسن، كانت تلك الفتاة التي زارت أحلام يقظتي يوم أمس، كانت بأفضل حال، نقشت على الجدار رسمة لدوائر متداخلة تتوسطها عين، لم تكن مرسومة بل كأن الجدار نفسه يفرزها، شعرت بأن تلك العين تخترق جسدي، كل شيء داخل رأسي انكمش، شعرت بألم شديد وصوت صفير لم أتحمله، وحين أغمضت عينيَّ للحظة، انفتح المشهد أمامي كأنه حلم كامل.

كنت في مكان آخر...

في قاعة صغيرة يغمرها الدخان، الضوء الأخضر يتسلل من المصابيح المكسوة

ART_OF_BOOK

بالغبار، رائحة الخشب والعرق تمتزج في الهواء كذكرى فاسدة.

أراه شابًّا على خشبة مسرح ضيقة، الخشب يئن تحت حذائه اللامع والستار يزحف كحيوان نائم، رائحة الورنيش والماء الراكد، وأصابع كثيرة تجرب الأوتار على عجل، وإلى جواره شاب آخر أصغر سنًّا، كتفاه نحيلتان لكن قامته مستقيمة كقوس مشدود، يضحك له ضحكة قصيرة، فيها تفوُّق هادئ، فيبتسم حسن أيضًا ابتسامة واسعة أكثر مما ينبغي.

المقطوعة تصارع نفسها، ثم تتراجع، ثم تنهض، وفي اللحظة التي يقترب فيها الصوت من الاكتمال، يلتفت حسن إليه ويقول بصوت خافت: "جرب الدوبل، خلينا نعملها سوا"، يهز الشاب رأسه موافقًا، ثم...

غرفة بروفة أصغر، مصباح متدلٍّ يترنح، وكرسيان متقابلان، على الطاولة علبة سجائر مفتوحة وكأس ماء لا يشربه أحد، جلس ذلك الشاب يربط شعرة منفلتة من قوسه، وحسن يطيل النظر إلى أصابعه، أصابع رشيقة، تقفز من وتر إلى وتر كما تقفز الطيور على حافة نافذة، يقول حسن وهو يضحك: "إيدك خفيفة، برافو"، فيرد الآخر ببساطة: "الكمان مش عايز عضلات".

ابتسامة حسن تتقلص قليلًا، كأن أحدًا شدَّها من طرفها.

خشبة أخرى، جمهور صغير، أصوات الكراسي أكثر من التصفيق، أعلى من المقطوعة نفسها، لكنها الآن أسرع وكأنها تطارد شيئًا يهرب منها، حسن يعزف باحتراف ميكانيكي والآخر يعزف كما لو أنه يتحدث؛ يتحدث عن ما يدور بداخله،

ART_OF_BOOK

ينتهي العرض، يقفان لتحية قصيرة، يد حسن على كتفه، لكنها تتزحزح بضعة ملليمترات، مسافة تكفي لتولد الشرارة.

في اليوم التالي للبروفة، جلس حسن في الغرفة الجانبية للمسرح، دخل رجل خمسيني ببدلة رمادية وصوت مائل إلى اللوم أكثر منه إلى الحديث.

قال وهو يتفحص إحدى الآلات:

- يا حسن.. إإ.. إحنا بنفكر نجرب شكل جديد في العروض الجاية.

لم يرفع حسن رأسه:

- شكل جديد إزاي؟

- يعني روح مختلفة.. شباب أكتر، طاقة تانية.

سكت قليلًا ثم أضاف بهدوء متعمد:

- الولد الجديد.. عنده حاجة، عايز أستغلها.. بس إنت لسه معانا في المقطوعة الأخيرة، إحنا لسه مكملناهاش، ومش هنعرف نكملها من غيرك.

دون أن يرفع رأسه، ابتسم ابتسامة لا تحمل ملامح، وقال بخفوتِ مريضٍ:

- تمام.

غادر المدير الغرفة وهو يتمتم:

- أنا آسف يا حسن.

ART_OF_BOOK

بعد أن أغلق الباب، لم يتحرك حسن من مكانه، إحدى الشعيرات المنفلتة من قوس الكمان تتدلى أمام وجهه.

مد إصبعه ولمسها، ثم شدها في عنف حتى انقطعت، أصدرت صوتًا خافتًا كان أقرب إلى صوت تحطُّم يخرج من داخله.

في يومٍ آخر، وجدتُ حسن وهو يقترب من هذا الشاب، يهمس إليه:

- الحتة الناقصة دي مش هتيجي غير في مكان واحد.

اتسعت حدقتا عينيه وصاح:

- فين؟

- في الباك ستيدج، في الممر اللي فوق المخزن.

- إشمعنا؟

- الصدى... الصدى هناك غير أي مكان، الصدى بيعرف يدِّي للنغمة قدسية، كأنك مستني الوحي، أنا جربت كتير، ونفعت معايا.

- طيب.. نجرب.

تبعه الشاب، صعدا سُلمًا معدنيًّا ضيقًا، خطواتهما تطرق الحديد كنغمة مترددة.

اعتليا منصة معدنية، تمتد على ارتفاع فوق قاعة سفلية غارقة في العتمة، أسفلها صناديق خشبية، ديكورات محطمة، وأسلاك تلتف حول بعضها بعضًا كأمعاء قديمة،

ART_OF_BOOK

الضوء المتدلي فوقها يتحرك ببطء، فيجعل ظليهما يتحركان على الجدار كراقصَين أضاعا الإيقاع، رفع الشاب كمانه، أما حسن استمر في مراقبته، بملامح ممتزجة بين الحسد والإعجاب، عيناه تشبهان حيوانًا جريحًا يراقب مرآته.

كل شيء بعدها حدث في ثانية لا تحتمل تفسيرًا...

دفعة صغيرة من حسن باتجاهه بالكاد تُرى، جسده يتراجع نصف خطوة، الوتر يصرخ كطائر يُذبح، ثم.. سكون.

رأيته يسقط، جسده يتدحرج بين الصناديق والظلام، يسقط بلا صوت، كأن المكان ابتلعه.

تجمد حسن محدقًا في يده بفزع، يتنفس بعنف، كان يحاول إقناع نفسه أنه لم يفعل ما فعله، عيناه تبحثان عن شاهد، عن أي عين رأت ما حدث، وبينما هو يدور في مكانه، ثبتت عيناه عليَّ فجأة.

حين عدت إلى الواقع، كنت في غرفة حسن، الممرضون يحاولون تثبيت جسده على السرير لكنه يهتز بعنف.

نادرة كانت عند رأسه، تمسك يديه وتحاول أن تهدئه، ثم التفتت نحوي، وجهها شاحب، وقالت بسرعة وهي تقترب:

- نديم إنت كويس؟

لم أُجِب، كنت فقط أتابع عينَي حسن، كانتا مفتوحتين تبحثان عني كأنهما ما زالتا

ART_OF_BOOK

عالقتين في الرؤية نفسها.. كأنه ما زال يراني من هناك.

سحبت نادرة يدي بلطف:

- تعالَ، سيبهم يكملوا، تعالَ بره.

رجلاي ثقيلتان، رأسي ما زال يضج بالمشاهد، لبثتُ للحظة عند باب الغرفة ونظرتُ إلى الخلف، أنا طبيب المجرم والشاهد الوحيد على جريمته.

اتجهنا إلى غرفة الأطباء، جلست ووضعت وجهي بين كفيَّ، أحاول أن أدرك الواقع، هل كانت رؤية من عقل مرهق؟ أم أني عبرت لحظة من الزمن لم يكن مسموحًا لي أن أراها؟

كانت نادرة تقف بجانبي، صامتة لوهلة، ثم قالت بنبرة منخفضة، يسبقها الخوف:

- إنت كويس؟ محتاج ترتاح شوية؟

رفعتُ رأسي، لم أجد جوابًا، فقط سحبت بصري نحو الفراغ خلفها، أنتظر أن أرى شيئًا جديدًا؛ يهمني الرد.

قلت بعد توتر لم أحاول إخفاءه:

- كنت.. بحاول أفهم هو بيسمع إيه، بس حسيت إني مسمعتش بس.. أنا شُفت كمان.

ضحكت في محاولة لإعادة الأمور إلى واقعيتها:

ART_OF_BOOK

- ده عادي، التقمص بيحصل عشان تفهم، بس متسبش نفسك أوي كده، هسيبك شوية وبعدها نكمل.

مرت الدقائق بتردد شديد لم أصل فيها إلى أي تفسير لما حدث، اصطحبتني نادرة لنكمل، تحركنا بين الغرف.

المرضى في فترات الانطفاء المعتادة، بعضهم نائم وبعضهم يحدق في الفراغ، كنت أسمع أصواتًا خافتة خلف الأبواب، كلمات مبعثرة، ضحكات، بكاءً متقطعًا، كلها كانت تأتي وتذهب مثل موج ضعيف على شاطئ هُجر منذ سنوات.

بقى اليوم يمشي ككهل عجوز، كان المشفى يختبر قدرتي على التظاهر بالثبات.

كنت أفعل كل شيء كما يجب؛ أسأل، أدوِّن، أستمع، أومئ برأسي، لكن رأسي ما زال يدور كالمسمار في سؤال واحد.

هل ما رأيته كان حقيقيًّا، هل حسن قاتل، أم أن المشفى يعرف كيف يصنع الحليم حين يختار؟!

مع اقتراب الغروب، دخل الدكتور عدنان إلى المكتب، كان صوته دائمًا أسبق من خطواته، نظر إليَّ ثم إلى نادرة وقال:

- عاملين إيه النهارده؟

قالت نادرة بسرعة فيها محاولة استباق حديثي:

- تمام يا دكتور، اليوم النهارده كان هادي نسبيًّا يعني.

ART_OF_BOOK

ثم أضافت:

- ده حتى دكتور نديم قدر يتعامل كويس جدًّا مع حسن، وخرَّج منه كلام لأول مرة من فترة.

ابتسم عدنان ورفع حاجبيه قائلًا:

- هايل، أول مريض ده بيبقى انتصار كبير، بتعامله على إنه أهم حالة، بعد كده بتتعود، وهتشوف كتير.. كتير أوي.

همست بيني وبين نفسي: "أنا لسه هشوف!".

ثم أكمل حديثه:

- بكرة هتستلم أول وردية ليلية ليك، خلي بالك، الليل هنا له مزاج تاني خالص، واثق إنك هتحبه.

انتهى الاجتماع القصير، وبدأنا نتفرق مثل ممثلين بعد مشهد طويل، حينما غادر عدنان سكنت الغرفة، واتجهت عيناي نحو نادرة وهي تلملم أغراضها للتجهز للرحيل، ترددت للحظة ثم قلت:

- شكرًا.

رفعت رأسها بسرعة خفيفة وفي عينيها شيء من الدهشة:

- على إيه؟

ART_OF_BOOK

- أنا النهارده مكنتش كويس خالص، وبالذات عند حسن، يمكن عشان أول يوم، وكمان اللي حصل أأ... عمومًا شكرًا إنك شكَّرتِ فيَّ قدام عدنان.

ابتسمت تلك الابتسامة التي لا تُظهِر إلا امتنانًا وندمًا:

- أنا مقولتش غير اللي المفروض أقوله، إنت فعلًا كويس، إنت مشوفتنيش بقى أول يوم.. ده أنا بهدلت الدنيا، كلنا بنبقى كده في الأول.

- إنت برضو مصرة إنك أقدم مني وعندك خبرة بالأسبوع اللي كان فيه يومين أجازة ده؟

ضحكت للحظات قبل أن تقول:

- لا بجد أنا أول ما جيت محدش ساعدني، كنت بستكشف كل حاجة لوحدي، الموضوع كان صعب، فلو عندي فرصة أسهلها عليك مش هتردد إني أعمل ده.

- عمومًا يعني بعد حركة النهارده، أنا مستعد أعاملك معاملة موظفة على المعاش لو عايزة.

***

وصلت إلى البيت، كان أبي نائمًا على الكرسي أمام التلفاز، وسند مستلقيًا بجانبه، رأسه على قدميه، لم أرِد أن أوقظهما.

تسللت إلى غرفتي، وضعت معطفي على الكرسي وجلست على السرير بلا هدف، عقلي مثقل، يحمل أصواتًا لا تخصه، قضيت الليل كله أحاول إيجاد تفسير لرؤية

ART_OF_BOOK

حسن.

في المساء التالي، عدت إلى المشفى، الليل قد بدأ يمد أطرافه فوق البوابة الحديدية، والمبنى يلمع كجسد مبلل لا يريد أن يجف، وفي المدخل رأيت نادرة تنتظر.

كانت ترتدي معطفها الأبيض وتحمل ملفات كثيرة، ابتسمت حين رأتني وقالت:

- مفيش قهوة النهارده، دورك إنت بقى تجيبها.

هززت رأسي بود:

- حاضر.

لم يكن الليل في ليڤان يشبه أي ليل آخَر عرفته، أظن أن المكان يغير جلده عندما تغيب الشمس، ويبدأ في التنفس بطريقة مختلفة، ليعلن عن حقبة جديدة، النهار.. كان واضحًا، باردًا، محسوب الأنفاس.. لكن الليل؟ الليل كان وجهًا آخر.

الضوء الفلوري الضعيف يرسم الممرات على شكل شرائح طويلة متقطعة، الجدران أصبحت أوردة لجسد كبير يضخ بداخله مرضى.. المكاتب الفارغة على الجانبين تشبه أفواهًا مفتوحة في صمت طويل، النوافذ المغلقة تعكس صورتي ممزقة ومشوشة، أرى أن تلك الصورة صادقة بشكل كبير.

عند المنعطف المؤدي إلى جناح المرضى، خفتت خطواتي للحظة، الضوء هناك أكثر خفوتًا، من الواضح أن الكهرباء تتعب هي الأخرى بعد العاشرة، في ذلك الصمت

ART_OF_BOOK

الغريب سمعت موسيقى بعيدة، رفيعة جدًّا تكاد تختفي في الهواء، لم أكن واثقًا إن كانت صادرة من غرفة حسن أم من داخلي.

وأمام باب الغرفة، لم أرِد أن أقترب أكثر، قلت بثبات جاهدت أن أصدقه:

- حسن، كله تمام؟

كان حسن جالسًا على حافة السرير، رأسه مائل إلى الجانب، شفتاه تتحركان بلا صوت، كأنه يتمتم بكلمات بلا لغة.

قلت من مكاني، محاولًا أن أجد صوتي في هذا السكون الثقيل:

- حسن، إنت سامعني؟

ولكنه كان يستمع إلى شيء آخر، شيء أعمق من الكلمات، هناك لحن ينساب داخل جمجمته، ثم بدأت أراها...

تلك الطفلة تجلس أرضًا بجانب السرير، تعبث بشيء لا أستطيع أن أراه.

تجمدت مكاني، قدماي التصقتا بالأرض، صوتي اختنق في حلقي، كان عقلي يصرخ أن أتحرك، لكن جسدي لم يتحرك، هناك شيء يتحكم بي لأشاهد شيئًا سيحدث الآن.

قال حسن بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه:

- عارف... إنت لو عملت حاجة في يوم وندمت وطلبت الغفران، هتلاقي كتير

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يسامحك، ربنا يسامحك، الناس تسامحك، لكن الوحيد اللي عمره ما يسامحك هو إنت، إحنا مبنعرفش نغفر لنفسنا.

ضغط بيديه بقوة ليغلق أذنيه، قبل أن يكمل:

- أنا لسه بسمعها، الأول كنت بسمع كمان بس، لكن دلوقتي.. بسمع كمان وبسمعه.. بسمع صوت تكسير جسمه تحت مني، أصوات كتير أوي، أصوات مبتسكتش، مبقاش نافع معايا تربطوني ولا تدوني كام حقنة.

حاول استجماع قوته وجحظت عيناه في تحدٍّ:

- بس أنا عارف أنا هسكتها إزاي.

صوت الحديد الخفيف وهو يتحرك كان أوضح من أي صوت آخر، تابعت الطفلة عملها، مدت يديها الصغيرتين أسفل الإطار المعدني، وشرعت تعبث بالمسامير الدقيقة التي تثبته، حتى أخرجت القطعة المعدنية، رفعت يديها في فرحة العثور على كنز، ثم أطلقت جسدها من الأرض متوجهةً إليه، ومدت يدها نحوه.

أخذها حسن منها دون أن يرفع عينيه إليها، كأنه يعرف أن ما تُسلِّمه ليس غريبًا عليه.

الموسيقى ازدادت حدةً، لكنها لم تصدر من أي مكان يمكن تحديده، كانت تهتز في الهواء.

صرخت بصوت لم أسمعه أنا نفسي:

- سيبها يا حسن.. سيبها.

ART_OF_BOOK

رفع القطعة المعدنية المدببة أمام عينيه، تأملها في صمت ثقيل، ثم مد يده نحو أذنه.

الطفلة كانت تقف بجانبه، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، تنظر إليه في حماس منتظرةً تلك اللحظة.

أدخل طرف القطعة في أذنه بهدوءٍ قاسٍ، صوت المعدن حين لامس الجلد كان واضحًا، رنين تمزُّق خفيف، ملامحه لم تتغير، فقط عيناه اتسعتا في لحظة خاطفة، ونفَس قصير خرج من فمه بلا صوت، الدم بدأ ينساب أولًا كنقطة واحدة ثم خط رفيع أحمر يتدلى على عنقه، لم يتراجع، واصل دفع المعدن أكثر، كان يبحث عن عمقٍ كافٍ يجعل الصوت يصمت.

ثم مال إلى جانبه، جسده اتكأ على السرير، والدم يسيل على عنقه بخفة هادئة.

لم أتحرك، سمعتُ صرخة حادة شقت الهواء من خلفي، صوت ممرضة لم أرَ وجهها بعد، وبعد لحظات تدفقوا إلى الداخل، ممرضون، نادرة، بعض الموظفين، وعدنان بعدهم بخطوات سريعة، الأجساد تتزاحم، كلهم يتحركون، رأيتهم يندفعون نحو السرير، أحدهم اصطدم بظهري، ثم آخر، لكنني كنت كما أنا، أصوات كثيرة حولي، أسئلة، أوامر، صرخات، لكنها بدت بعيدة، كأنها تُقال تحت الماء.

بين الأجسام، كان ما زال مجال لرؤية حسن، كان ساكنًا تمامًا، وفي عينيه لم يبقَ سوى تلك الراحة التي تأتي بعد ألمٍ طويل.

ART_OF_BOOK

وعلى الرغم من كل تلك الفوضى، عاد ليڤان إلى صمته القديم؛ صمته الذي لا ينكسر إلا ليبتلع أحدهم!

***

مرَّ يومان على الحادثة، لكن ليڤان لم يهدأ، المكان أصبح أكثر صمتًا، هل يخبئون أمرًا ما، سؤال أحمق من شخص مثلي، بالطبع يخفون شيئًا، في اليوم الأول لي مررت بكل تلك الأحداث، فكيف بكل مَن يعمل هنا منذ سنوات! الممرضون يتحركون أسرع من العادة، الأطباء يتكلمون بصوت منخفض كأن كل كلمة قد تُستخدم ضدهم، لم يسألني أحد عما رأيته تلك الليلة، ربما لأنهم يعرفون الإجابة، أو ربما لأنهم لا يريدون أن يسمعوها، عدنان عاد في اليوم التالي ومعه لجنة صغيرة من الإدارة؛ تحقيقات، أوراق، توقيعات، سألني أحدهم بصوت بارد:

- إنت آخر حد شُفته عايش، صح؟

- أيوه.

- إيه اللي حصل؟

- معرفش.. أنا سمعت صوت بيصرخ، وأول ما قربت من الأوضة وفتحت الباب شُفت المنظر ده.

- مقالش أي حاجة قبلها؟

ترددت للحظات، ثم أجبت:

ART_OF_BOOK

- لأ، ملحقش.

حتى أنا ما عدت أشبه نفسي، شيء ما انطفأ داخلي وبقي رماده هناك، لا ينطفئ تمامًا ولا يشتعل. في البيت، تمر الساعات بلا شكل محدد، أستيقظ متأخرًا، متأثرًا بكوابيس لا نهاية لها، أبي يحاول الحديث فأجاريه، لكن الكلمات تسقط بيننا، لا أعلم ما هو عدد المرات الطبيعي التي من المفترض أن يشاهد فيها الإنسان شخصًا يقتل نفسه، ولكن أعان الله كل مَن مرَّ بذلك.

في اليوم الثالث، عاد كل شيء ظاهريًّا إلى نظامه؛ المرضى يتناولون أدويتهم، الأطباء يتناولون فطورهم بين الأروقة، الممرضون يتسكعون ليساعدوا الوقت على المضي، وعدنان اكتفى بمراقبة كل شيء من بعيد، فقط يطمئن إلى عودة النظام.

في المساء، بينما كانت نادرة تجمع ملفاتها وتغلق أدراج مكتبها بسرعة، التفتت نحوي وقالت:

- أنا مش مصدقة إن النهارده الخميس، وأخيرًا هرتاح من الضغط ده ولو كام ساعة بس.

- يا بختك بتعرفي تفصلي.

- وإنت إيه اللي يخليك متعرفش تفصل؟!

- عشان مفيش جديد، هروح البيت، أقعد قدام التلفزيون مع أبويا، هلعب مع سند شوية وهقضي الأجازة نوم غالبًا، ده لو عرفت.

ART_OF_BOOK

- وصحابك؟

- أنا عندي معارف، معنديش صحاب.

- بس ده مش طبيعي!

ضحكتُ ضحكة لم أستطع كتمها.

- عندك حق والله، كل اللي بيحصل ده طبيعي جدًّا، لكن إن أنا معنديش صحاب ده مش طبيعي، ده ربنا يسترها على العالم!

ضحكَت ضحكة مقتضبة بسخرية، على سخريتي، وقالت وهي تحمل حقيبتها:

- طيب إيه رأيك تيجي تقعد معانا النهارده؟

- إيه صعبت عليكِ؟

- أنا بتكلم بجد، إنت معندكش حاجة وفاضي، تعالَ وجرب يمكن ده يخليك تفكّ شوية، إنت مش شايف نفسك عامل إزاي بقالك كام يوم، كده هنحجزلك أوضة!

- مبحبش أقعد مع حد معرفوش.

- بس إنت تعرفني، تعالَ ولو متبسطتش امشِ.. بسيطة.

خرجَت، فترددت، ثم لحقت بها دون أن أقول شيئًا، سرنا معًا إلى الخارج، كانت تتحدث عن أشياء عادية، مثل الازدحام.. الطقس، وأحاديث عابرة عن حياتها، ولكني كنت منشغلًا بشي آخر، بأنها المرة الأولى التي أراها فيها خارج ضوء ليڤان البارد..

ART_OF_BOOK

ضوء الشوارع أعاد ترتيب ملامحها، شعرها الأسود المربوط إلى أعلى، لكن خصلة واحدة أفلتت على وجهها، عيناها بُنيتان، فيهما دفء لا يليق إلا بهما، ضحكتها سريعة خفيفة، حين تضحك تظهر حافة صغيرة من لثتها العليا، شيء لا يرى إلا للحظة لكنه يبقى بعد أن تغيب الضحكة، لم تكن جميلة بالمعنى الذي يوقفك، لكنها كانت تملك توازنًا بين الراحة والاضطراب، ذلك النوع الذي يفرض حضوره دون جهد، تعجبت كيف أصبحت كلماتها قادرة على تهدئتي، تضبط الإيقاع المضطرب في رأسي، لم أفكر إن كان ذلك إعجابًا أو حاجة إلى السكون، كل ما أعرفه أني حين أنظر إليها أشعر بأن الهواء حولي أصبح أهدأ.

المكان كان مقهى صغيرًا على ناصية مزدحمة، الضوء بالداخل جعل الزجاج يعكس وجوهًا نصف غائبة، حين دخلت معها، امتزجت رائحة القهوة بالسجائر، وكلمات متناثرة تتخللها ضحكات عالية، أشارت بيدها إلى طاولة في الركن، وقالت وهي تبتسم:

- دول صحابي، بُصلهم لو مش عاجبينك نقعد لوحدنا.

ضممت شفتي وأومأت برأسي:

- هبقى قليل الذوق أوي لو عملت كده.

كانوا أربعة أشخاص؛ ثلاثة رجال وفتاة تجلس في الجهة المقابلة، بعد الترحاب وبالتأكيد قاموا بلعن نادرة على جلبها هذا الدخيل، بدأ الجميع يتحدث في وقت واحد؛ نقاشات عن أفلام وكتب لا أحد يقرأها إلى النهاية، لم أكن بينهم بعد، كنت ما زلت منشغلًا بنادرة، كيف بدت مختلفة عن تلك الفتاة الهادئة التي أعرفها في المشفى؛

ART_OF_BOOK

كانت تضحك، تُلوِّح بيدها، تسخر من الجميع، اندهشت من نفسي أني أبتسم، أني أجلس بينهم من الأساس، فقد جلست أراقبهم كما أراقب مرضاي، كانوا بالفعل مشروعًا لمرضى ربما يمرون على ليڤان يومًا ما.

أما هو.. الذي عرَّفتني عليه باسم ياسين شعيب، فكان مختلفًا قليلًا، عيناه لامعتان كأنهما تمسحان الوجوه بحثًا عن شيء جديد، كان كالأبكم بينهم؛ يراقبهم ويستمع وعيناه تدوران بينهم مع ابتسامة خفيفة، أشارت نادرة اتجاهه وتحدثت إليَّ:

- ياسين ده الكاتب بتاعنا، أنا مستغربة إنك متعرفوش، مقابلكش على النت قبل كده؟ هو فعلًا محدش عاقل يتابع واحد زيه.

ابتسم في مجاملة:

- طيب يبقى من مصلحتك تكسبيني يا دكتوره، إنتِ كل زباينك عندي.

- زباييني! هي وصلت لزباييني! ثقافتك بقت في النازل!

تشجعت قليلًا واستجمعت كلماتي في محاولة للاندماج معهم:

- وحضرتك بتكتب عن إيه؟

- في الفترة الأخيرة، بكتب عن الأماكن، فيه أماكن كتير أوي في الدنيا مش لاقية حد يحكي عنها.

أضافت نادرة بابتسامة جانبية:

ART_OF_BOOK

- أماكن ملبوسة زيه، من كتر ما بقى يكتب عنهم، بقى شبههم، ياسين ده كان دمه خفيف زمان والله.

لم ألتفت إليها، ونظرتُ إلى ياسين بفضول حقيقي:

- أماكن حقيقية؟ ولا من خيالك؟

أنهى آخر رشفة من قهوته، ومد رقبته ناحيتي واستقرت عيناه في عينيَّ:

- هتفرق؟ ما الاتنين واحد، كل مكان عشان يقولك اللي جواه لازم يلعب بخيالك؛ إنت عمرك شُفت فيديو حقيقي لبيت بيتخلع من مكانه ويطير مثلًا، أو قرية بيوتها بتتكلم، أو مسرح بينقلك لمكان تاني؟ عشان ده مينفعش يبقى واقع أو حقيقة، لكن فيه شخص واحد شاف ده، عشان المكان كان عايزه يشوف ده.

- وإشمعنا الشخص ده، ليه ده بالذات اللي بيشوف دونًا عن كل الناس.

- ما عشان كده لو فيه مكان اختارك يبقى لازم تفضل في المكان متهربش، عشان تعرف ليه إنت بالذات، لازم تفضل للنهاية عشان تفهم.

- حتى لو اللي شُفته ده له علاقة بحياة شخص وفي الآخر مقدرتش ألحقه.

- بيك أو بغيرك ده هيحصل، وكده كده إنت ملحقتش اللي فات، المهم تحاول في اللي جاي.

- اللي جاي؟

ART_OF_BOOK

اتجهت إليَّ نادرة، ضامةً حاجبيها وفمها في أسى:

- نديم.. متخليش اللي حصل في المستشفى يأثر فيك، إنت ملكش ذنب، ده حتى التحقيق مدَّكش جِزا يوم واحد، أنا عارفة إن اللي شُفته يومها صعب، بس صدقني هتضر نفسك لو فضلت عايش في الذكرى دي وقت طويل.

أعاد ياسين رقبته الممدودة وأراح ظهره إلى الكرسي، وضم ذراعيه وهو يضحك دون صوت حتى ظهرت جميع أسنانه، وهز رأسه في تعجب، بدا كأنه يعلم كل شيء مرَّ به قبلي ويعلم رؤى الماضي وخطوات المستقبل، ثم خيَّم عليه السكون حتى النهاية.

خرجنا قبل منتصف الليل بقليل، الشارع شبه خالٍ، الجميع ذهب.. لم يبقَ غيري أنا ونادرة، توقفت أمام الباب الزجاجي، تصلح شعرها الذي تحرَّر من ربطة ضيقة، وقالت وهي تتطلع إلى انعكاسها في الزجاج:

- كنت متوقعة تمشي في نص القعدة بصراحة.

قلت وأنا أنظر إلى الرصيف وأحك نعل حذائي به:

- وأنا كمان، بس الوقت عدَّى بسرعة.

- يبقى اتبسطت.

- مش مبسوط، لكن مرتاح، ودي أهم من الانبساط.

صمتُّ قليلًا، حتى تنتهي، كان الجو باردًا كعادة القاهرة ليلًا، وريح خفيفة تمر بيننا تحاول أن تملأ الصمت.

ART_OF_BOOK

- يعني أفهم من كده إننا هنكررها تالي؟

- هو اللي أنا مستغربُه إني هقولك يا ريت.

ضمت يديها ولوَّحت بهما في احتفال.

أخرجت يديَّ من جيب معطفي وأنا أضحك:

- إيه كل ده، إيه اللي يبسط أوي كده!

- مش مبسوطة، مرتاحة ودي أهم من الانبساط.

أحببت طريقة استهزائها بكلماتي.

- يعني أقدر أقول إننا بقينا صحاب، وبقيت أول حد يعني.

- أنا حاسس إنك بتعامليني كحالة!

- كلنا حالات.

- صحاب دي ممكن نحددها بعدين، بس الأكيد، إننا أحسن من المعارف.

حين وصلتُ إلى البيت كانت الساعة تقترب من الواحدة، المنزل غارق في ضوء أصفر باهت يأتي من الصالة، وصوت بعيد يتسلل من جهاز التلفاز. وجدت أبي يمارس هوايته المفضلة منذ سنوات طويلة، يجلس على كرسيه وأمامه كوب شاي انطفأت حرارته وعلى الشاشة أم كلثوم تُكمل أغنية قديمة، كان يهمهم مع اللحن بصوت خافت، نصفه غناء ونصفه تنهُّد:

ART_OF_BOOK

"أنا وإنت اللي كنا زمان أحب اتنين وأحن اتنين

وكان أكبر خصام بينَّا يدوب في يومين.. يدوب في يومين

خصامنا ليه النوبة دي زاد

وخلى الخطوة بينا بلاد

وفرَّقنا على طريقين

وضاع الحب ضاع

ما بين عِند قلب وقلب ضاع

ودلوقتي لا أنا بنساه ولا بستناه ولا بنلقاه

أنا وإنت.. أنا وإنت".

وحين رآني، التفت إليَّ وقال:

- اتأخرت النهارده يعني!

قلت وأنا أضع المفاتيح على الطاولة وأجلس بجانبه:

- يعني قعدة صغيرة كده مع حد من زمايلي.

اعتدل مبتسمًا لي:

- طالما قلت حد تبقى واحدة.

ART_OF_BOOK

- مفيش حاجة بتعديها إنت.. دي فايدة إنك تبقى راجل عجوز وفاضي.

قال وهو يسكب لنفسه ولي شايًا جديدًا:

- الأغنية دي مبيتزهقش منها، بتبين قد إيه الإنسان حمار.. وإن العشم ممكن يموِّت أي حد... بتبقى عشمان إن الطرف التاني باقي وموجود كإنه بيتمدد ملوش نهاية، طول ما هو عايش وفيه نفَس هيبقى معاك، لغاية ما تفوق.

صمتُّ قليلًا قبل أن يعيدها مرة أخرى: "تفوق".

كنت أراقب عينيه الثابتتين والبخار يتصاعد من الكوب أمامهما، كان يرى شيئًا أعرفه جيدًا، ثم أكمل:

- وتكتشف قد إيه إنت كنت غبي، وإن محدش يستاهل العشم ده، وتتجنن.. بتقعد كل ليلة تسأل نفسك.. إزاي؟ إزاي العينين دي والضحكة دي والذكريات دي كلها قدرت تعمل كده... الحالة دي قادرة تدمر حياتك، بتخرَّج منك شخص إنت متعرفوش، شخص إنت بتكرهه، مرعوب دايمًا بعد ما كان عايش مطمن.

ربَّتُّ على كتفه:

- إيه الكلام الكبير ده، هي الست تعمل كل ده؟

تحررت عيناه من تلك المشاهد التي يراها أمامه، ثم نظر إليَّ:

- أهو كلام.. مش هيغير حاجة يعني، المهم إنت... متتعشمش يا بني، إوعى...

ART_OF_BOOK

خلي قدام عينك دايمًا إن فيه احتمال أي حد يسيبك ويمشي، أي حد، مهما كان مين؛ عشان متبقاش زيي.

لم أعلق واكتفيت بهز رأسي.

كانت كلماته تصف رحيل أمي المفاجئ عنه وعني، في كل نهار كان يظهر بملامح حادة ينظر إليَّ في تماسك ويبدأ في إقناع طفل صغير، بأننا لا نحتاج إليها أو إلى وجودها، لم أصدقه قط ولم تقنعني كلماته، فإن كنا لا نحتاجها فلمَ أراه كل ليلة يبكي ويطلق صرخات مكتومة في الهواء بغرفته بعد رحيلها، كنت أكتفي بهز رأسي فقط.

ربما لم يُتِح لي الوقت أن أحتفظ بذكريات مع أمي، حتى إن صورتها في مخيلتي مُشوَّشة، سيدة من دون ملامح محددة، لكنني كنت

أفتقدها، فكيف هو بعد سنوات من الحب الذي أخبرتني جدتي عنه يومًا ما في حكايات الجدات، حكت لي وهي تمصمص شفتيها في أسى على حال أبي:

- أبوك كان بيحب أمك من وهما عيال قد كده، كان يتمنى بس رضاها، بيمشي وراها في كل مكان، رسم حياته كلها عليها، ولما كنت أمنعه عنها كان بيعصيني وهو عمره ما عملها، وأول ما شد طوله.. جري عشان يتجوزها، أنا وافقت من كتر ما كنت بشوفه مبسوط معاها ومكنتش عايزة أكسر بنفسه، يا ريتني عرفت أمنعه، بس وقتها كان هيفضل فاكر إني منعت عنه حب عمره، مكنش عارف اللي مستنيه، في كل الأحوال كان هيبقى زي ما هو دلوقتي، ده نصيبه، دي لعنته اللي معرفتش أحميه منها.

علمتُ يومها أن ثمة أناسًا تُقيَّد أقدارهم بالأسى، وأن جميع الاحتمالات تنتهي بألم

ART_OF_BOOK

لا مهرب منه.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الفصل الثاني

مَن يُطعِمُ الموت؟

عدتُ إلى ليڤان بعد يومين من الغياب، لم أشتَق إلى العمل، إلى المرضى، أو الروتين، الحقيقة أبسط من ذلك وأخطر، كنت أفتقدها.. هي.

بعد أن اعتدت أصبح الطريق إلى المشفى أقصر هذه المرة، والبوابة الحديدية أقل رهبة، حتى رائحة المشفى التي كنت أكرهها صارت مألوفة. في غرفة الأطباء كانت نادرة تنتظر، وفي يدها ملف لمريض جديد، قالت بعد أن رفعت رأسها وأرسلت إليَّ ابتسامة ترحيب:

- شكلك مختلف النهارده، الأجازة جات معاك بفايدة.

قلت وأنا أرتدي معطفي:

- بالعكس أنا كنت زهقان، ومبحبش أقعد فاضي مبعملش حاجة.

- حيث كده يبقى اتفضل.

ناولتني ملفًّا وقالت:

- المريضة.. هدى رأفت، مش سهلة خالص وعنيفة جدًّا، عندها تسعة وتلاتين سنة، من أسبوعين كانت في عيادة خاصة ونقلوها على هنا.

سكتت قليلًا ثم أضافت:

ART_OF_BOOK

- التشخيص المبدئي Poisoning Dclusion بارانويا تسمُّم، رافضة تاكل أو تشرب أي حاجة من أي حد، خايفة إن حد يسممها.

كانت الغرفة في آخر الردهة، بابها مغلق نصف إغلاق، طرقت نادرة الباب برفق، وجاءنا صوت واهن من الداخل يقول: "محدش يدخل"، تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، وأشرت إلى نادرة بالمبادرة، فتحَت الباب ونظرت إلى الداخل، ثم أشارت إليَّ أن أتبعها.

رأيتها تجلس على كرسي مقابل للباب وتتهيأ لأي خطر قادم من الخارج، وجهها شاحب كصفحة بيضاء لم يُخَط عليها شيء، وشعرها مرتب بعناية، أمامها كوب ماء مغطى بمناديل وعيناها تتابعان كل حركة في الغرفة كمن يحصي أنفاس الآخرين.

قالت نادرة بصوت هادئ:

- صباح الخير يا هدى.

لم ترُد عليها، كانت فقط تحدق في يدَي نادرة ثم في يديَّ أنا، كانت تبحث عن سبب لتخاف أكثر.

تقدمتُ بخطوة ناحيتها، فقالت بصوت مرتعش لكنه واضح:

- متقربش.. محدش يقرَّب مني!

في تلك اللحظة، لم أكن أرى أمامي إلا مريضًا خائفًا، ومن واجبي أن أطمئنها.

ART_OF_BOOK

- إنتِ مشربتيش كوباية المية حتى؟!

قالت وهي تحدق في عينيَّ بتحدٍّ:

- مش عايزة.

اقتربت أنا ناحية الكوب، وفي تلك اللحظة احتضنت نفسها في محاولة لحمايتها.

- طب أنا ممكن أشرب؟

لم ترُد على سؤالي وراقبتني في تعجب وانتظار لما سيحدث لي، رفعت كوب الماء إلى فمي وتجرعت منه القليل، وأنزلت الكوب وأعدته إلى مكانه أمامها.

- آسف كنت عطشان جدًّا، لسه مش عايزة تشربي؟

أشرت بيدي إلى الكوب لتشجيع عقلها على المحاولة مرة أخرى.

رمقت الكوب، واهتزت قرنيتا عينيها كأن شيئًا خفيفًا مرَّ أمامهما، ثم مدت يدها فجأة ودفعته في محاولة للتخلص منه أكثر من إسقاطه.

أشرت إلى نادرة بحاجبي، كانت عيناها تتابعان المريضة بقلق، تبادلنا نظرة قصيرة فهمنا من خلالها ما لم يُقل، نظرتنا كانت اتفاقًا خفيًّا أن أمامنا حالة تحتاج إلى عمل شاق.

وفي لحظة شعرت بأن شيئًا غامضًا تسلل من الزاوية، لا يُرى لكنه يُحس، أبعدت عينيَّ عن نادرة، لأراها خلفها في بقعة الضوء الضعيفة عند الباب، كانت تقف هناك

ART_OF_BOOK

بفستانها الزهري وطولها الذي لم يتعدَّ المتر، وجهها ساكن، وعلى الجدار خلفها العين المرسومة تعود إلى الظهور مرة أخرى، حدقتاها تتسعان كأنها تراني وحدي.

جف حلقي، شعرت بأني أعود إلى تلك الليلة، إلى الصرخات والحديد والدم، تراجعت خطوة إلى الخلف دون وعي، سمعت نفسي أقول بصوت واضح ومتهدج: "لأ لأ لأ... تاني؟".

بدت الرؤية مُشوَّشة، ولكني رأيت طيف نادرة تقترب مني بخوف:

- نديم.. مالك؟

أشرت إليها بيدي المرتعشة، بصري مُعلَّق خلفها حيث لا ترى هي شيئًا.

ثم...

وجدتُ نفسي واقفًا في مكان لا أعرفه، حديقة صغيرة تلمع أوراقها بندى الصباح، ورائحة الورد تختلط بعطر نسائي خفيف، يشبه شيئًا أعرفه ولا أذكره.. كانت هدى هناك، أصغر سنًّا ووجهها ممتلئ، تبتسم ابتسامة كاملة، تتحرك بين الطاولات، كانت تعرف كل مَن في المكان، تضحك بصدق ضحكةً لم أرَها على وجهها حين قابلتها في ليڤان.

اقترب منها رجل في منتصف الخمسين، بدلة داكنة وربطة عنق مرتخية، مشيته بطيئة لكنها واثقة، قال لها شيئًا لم أسمعه فضحكت ضحكة ناعمة، كانت تخفي اتفاقًا لا يريدان أحدًا أن يسمعه.

ART_OF_BOOK

انتقل المشهد كومض.. الآن هما في قاعة ضخمة، أضواء خافتة، موسيقى هادئة، الناس يصفقون وهما يقفان في المنتصف، يده على خصرها، ووجهها أضاءته فلاشات الكاميرات، كانت تراه بعينين مطمئنتين وسعيدتين.

لم تكن عروسًا، كانت فائزة.

ثم... منزل واسع أكثر من اللازم. هناك بيوت الهدوء بها لا يخص الراحة بل السيطرة.

كانت تسير في ممر رخامي بثوب منزلي مزدهر الألوان. تحمل فنجان قهوة وتقول شيئًا ما لشخص في الغرفة المجاورة، هناك يجلس الرجل نفسه خلف مكتب كبير. يقرأ جريدة ويهز رأسه بلا اهتمام.

أمامها شاب ربما في بداية العشرين من عمره، هناك شيء همس في ملامحه من الرجل. وجهه نحيف، عيناه ساكنتان كسطح ماء راكد.

وضعت الفنجان أمام زوجها، ثم اتجهت إلى ابنه. وقالت بنبرة وديعة:

- عايز قهوة يا سليم؟

- لا شكرًا.

قالها ببرود، بدا أنه غير متقبل وجود هدى في منصب السيدة الأولى لهذا البيت. أما هي فابتسمت بثقة هادئة وخرجت من الغرفة، وتركت وراءها رائحة العطر نفسها التي ملأت الحديقة في البداية، ولكنها الآن لم تعد رائحة ورد، بل شيء أقرب إلى دخان

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يتكون قبل الحريق.

كان المساء ثقيلًا، في الصالون واجه الرجل ابنه، وصوته يرتفع كل لحظة أكثر من التي قبلها.

- أنا عملتلك إيه عشان تطلع كده؟ أنا ابني يبقى مدمن؟ أنا يجيلي الفضيحة على آخر الزمن بسبب عيل زيك!

أنا دلعتك كتير، بس ورحمة أمك اللي عمري ما حلفت بيها قبل كده، من النهارده هتشوف معاملة مشوفتهاش طول حياتك!

كان سليم يجلس على الأريكة، وجهه شاحب وتحت عينيه شبح أسود يتسلل إلى روحه، يمسك بكتفه يحمي نفسه من كلمات والده.

كان الرجل يصرخ بصوت مجروح أكثر منه غاضبًا، أما هدى كانت تتابع المشهد من باب الغرفة، تماسكت في مكانها تتظاهر بالقلق، لكن في عينيها بريق لا يشبه الخوف، بل بريق تلك الأفكار التي يهمس الشيطان إلينا بها، فنستحسنها دائمًا.

حين تركهما الأب وخرج إلى مكتبه، اقتربت هدى من سليم في لين، وقالت بصوت ناعم في مواساة:

- متزعلش هو بس خايف عليك.

لم يرُد، فقط حاول أن ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين.

خارج المنزل وفي أحد الأحياء الشعبية، استقرت هي خلف مقهى قديم، الإضاءة

ART_OF_BOOK

خافتة والجدران متسخة، وهناك رجل ينتظر، يرتدي معطفًا رخيصًا ويمسك سيجارةً قصيرة بين أصابعه، لم يتكلم حين رآها، اكتفى بإشارة برأسه، اقتربت منه وفتحت حقيبتها وأخرجت ظرفًا صغيرًا من المال، وناولته إياه دون أن ترفع عينيها.

أخرج من جيبه كيسًا صغيرًا ملفوفًا بورق داكن أعطاها إياه، لكنها توقفت، وقالت بنبرة منخفضة:

- محدش يعرف إننا اتقابلنا.

- أنا عمري ما حفظت وش حد يا ست الكل.

عندما وصلت إلى البيت، في الطابق العلوي، كان الضوء يتسرب من أسفل باب سليم، طرقت الباب طرقة خفيفة، ولما لم يُجِب؛ دفعت الباب ودخلت، كان مستلقيًا على سريره، متعبًا، صوته بالكاد يُسمع، وهو يحاول أن يستنجد بها.

- أبوس إيدك خرجيني من هنا.

ابتسمت ومسحت على رأسه:

- مش هينفع أخرَّجك، أبوك هيتضايق جدًّا مني لو عملت كده.

وجَّه بصره إليها في يأس وهو يسمك بيديها:

- بس مش هسيبك كده برضو، أنا حاسة بيك.

مدت إليه الكيس، انقض عليه بعينين جاحظتين، كمن وجد طوق نجاته، مزق

ART_OF_BOOK

الكيس وأخرج محتوياته، غرس الإبرة في ذراعه بعنف، وانقلبت عيناه في نشوة عظيمة، كانت تراقبه، كان كشمعة تنطفئ بسلام.. وحين سقط رأسه إلى الخلف، قامت والتقطت الحقنة الفارغة من الأرض، لفَّتها في منديل صغير، وأخفتها في جيبها، ثم سحبت الغطاء على جسده حتى الرقبة، وخرجت من الغرفة بوجهٍ خالٍ من التعبير، وفي طريقها إلى أسفل الدرج همست لنفسها: "مش هسمح إن حد يشاركني في كل ده!".

في الأيام التالية، بدأت تُمرِّر إليه كل ليلة ما يريد، كان سليم يغيب عن الوعي لساعات طويلة، يتحدث بكلمات متقطعة لا يسمعها أحد، هدى كانت تراه ينهار تدريجيًّا وتكتفي بالمشاهدة، كانت تنتظر اكتمال المشهد الذي بدأته بنفسها.

عندما حاول الأب إدخاله المصحة، أقنعته هدى بأن انتشار ذلك الخبر سيضره كثيرًا، وأن الناس لا ترحم، وأن سليم سيُشفى في البيت، لكنه لم يكن يعرف أن البيت أصبح مصيدة كبيرة.

وفي ليلة لم تكن تختلف عن سابقاتها، وُجد سليم ممددًا على سريره، وجهه أزرق ويده متيبسة على طرف السرير، ورائحة الموت تفوح في كل زاوية من غرفته.

دخل الأب الغرفة أولًا، لم تتبعه هدى فقد كانت تعرف الخبر منذ البداية، اكتفت بأن تكون خلفه في صمت، وعندما أدار وجهه نحوها رأى دموعها تلمع في عينيها بلا صوت.. وضعت يديها على كتفه وقالت:

- إنت عملت كل اللي عليك، هو السبب، هو اللي عمل في نفسه كده.

ART_OF_BOOK

جلس بجوار الجثة يبكي بصوتٍ مبحوح كمن ينتظر عقابًا يطهره من إهماله؛ عقابًا لن يأتي أبدًا، بينما خرجت هي تاركةً خلفها ذلك العطر الذي صار توقيعها الأخير على الموت.

***

استيقظتُ على صدى اسمي، صوت بعيد يتردد في رأسي وكأنه يخرج من بئر ضيقة، ثم بدأ الضوء يتسلل إلى عينيَّ.

الضوء كان مؤلمًا، النهار انسكب فجأة بعد ليل طويل.

كنت ما زلت في غرفة هدى، نادرة تمسك كتفي وتكرر اسمي بصوت واضح.

حركت رأسي بسرعة في محاولة لإنعاشي، ثم تركتها وركضت خارج الغرفة، واتجهت ناحية غرفة الأطباء، خلعت معطفي وبدأت في حزم أغراضي؛ هاتف ومحفظة وحقيبة اعتدت أن أحمل بها قارورة مياه وكتابًا لم أكمل قراءته منذ شهور وشاحن للهاتف وبعض الأشياء التي لا أتذكرها.

اقتحمت نادرة الغرفة، وأغلقت الباب وراءها بحذر، وهمست إليَّ:

- إنت بتعمل إيه؟!

- أنا مش هكمل شغل هنا، أنا عايز أحافظ على اللي باقي في عقلي.

- إيه اللي حصل لكل ده؟ وليه لتاني مرة بتُوه وإحنا عند أي حالة لدقايق، وترجع تاني حالتك كده.. إنت كويس؟

ART_OF_BOOK

- أنا مش كويس.. أكيد مش كويس.

- طب قولي مالك.

- أنا.. أنا بشوف...

- بتشوف إيه؟

- مش هتصدقيني، وحقك متصدقيش.. أنا نفسي مش مصدق، بس أنا متجنتش، المستشفى هنا فعلًا فيها حاجة غريبة.

- طب جرب تقولي.. مش إحنا صحاب.. معارف يا سيدي.. احكيلي، يمكن أقدر أساعدك.

تنهدتُ في ضيق وتركت حقيبتي ترتطم بالكرسي وألقيت بنفسي أمامها، وبدأت في أولى جلسات علاجي، بدأت تنظر إليَّ نظرات أعرفها جيدًا؛ نظرات الطبيب النفسي لمريضه، نظرات أسى، تحاول النظر بعيدًا أثناء حديثي، حتى لا ألاحظ أنا ذلك، ولكني ما زلت أراها، بدأت من مأساة حسن وانتهت عند الرؤية الخاصة بهدى، حاملة السم.

طقطقت أصابعها، وتفحصت السقف للحظات ثم قالت:

- أنا مصدقاك إنك شُفت كل ده، ومعنديش شك ولو ١% إنك مرِّيت بألم حقيقي في التجربة دي، بس...

ART_OF_BOOK

أعلم تلك الكلمة "بس"، نتركها للنهاية بعد التأكيد والتوكيد والتصديق، تأتي تلك الـ"بس" لتمحو كل ما سبقته، أصدقك لكنك كاذب، أشعر بألمك لكنك مُدَّعٍ، أنت عاقل لكنك دون عقل.

ابتسمت نصف ابتسامة قبل أن أستبق كلامها:

- بس محتاج أتعالج.. صح؟

- مش ده قصدي... بس أوقات... شغلنا بيأثر علينا، في ناس بتتأثر بسرعة من الحالة اللي حواليها، وجودك وسط مرضى، أوقات بيخليك ترتبط بيهم، تحس إنك شبههم، أو تشوف تصرفاتهم، فتقول أنا فيه حاجات بتصرف فيها زيهم، يبقى أنا كمان عندي خلل في حاجة ولسه مش ظاهر، عقلك بيقتنع بده ويبدأ يخلق فعلًا مرض مكنش موجود.

دسست رأسي بين ذراعيّ غير مهتم بكلماتها، واخترق الصمت المكان للحظات قبل أن أطلق كلمةً أنارت عقلي:

- سليم.

- يعني إيه؟

رفعت رأسي وأنا أهزه في موافقة سريعة:

- سليم.. إحنا نروح عند بيت هدى ونسأل.. لو طلع فعلًا، كانت متجوزة من راجل غني وعنده ابن اسمه سليم مات بسبب أوفر دوس مخدرات.. وكل التفاصيل اللي أنا حكيتها دلوقتي يبقى أنا صح، ولو مش حقيقي، يبقى أنا فعلًا محتاج علاج.

ART_OF_BOOK

في صباح اليوم التالي، كان الضباب ممددًا على الطريق، نادرة تقود السيارة وأنا بجانبها أجلس في صمت، السماء رمادية والهواء البارد يدخل من فتحة الزجاج الصغيرة. قالت نادرة وهي تمسك المقود بيديها الاثنتين:

- أنا مش عارفة اللي إحنا بنعمله ده صح ولا لأ؟

- في كل الحالات صح... دلوقتي هنعرف.

- طب مش كان المفروض ناخد معاد من الراجل ده الأول؟

- مفيش وقت، هدى ممكن يبقى مصيرها زي حسن.

لم تُجِب وظلت تقود في صمت، بعد ساعة تقريبًا ظهرت ملامح القصر من بعيد، كأنه يطفو عن الأرض، مُحاطًا بسور عريض من الحديد، وعلى بوابته لافتة صغيرة باهتة كُتب عليها الاسم الأول والثاني لصاحب المكان.

عند البوابة تأنَّت نادرة، ثم نظرت إليَّ وقالت بنبرة مترددة:

- هنقول إيه؟

- مش عارف... ممكن نقول إن إحنا الدكاترة المسؤولين عن علاجها، وكنا محتاجين نسأله عن آخر فترة ليها إيه اللي اتعرضِتله، عشان ده هيساعدنا في علاجها.

أومأت برأسها دون اقتناع، عند البوابة الحديدية قابلنا رجلًا قصير القامة، نحيف الجسد، بملابس أمن أكبر من مقاسه بدرجة كبيرة؛ الشروط الأساسية لوظيفة رجل الأمن.

ART_OF_BOOK

- مين حضراتكم؟

نادرة ابتسمت بثقة مصطنعة:

- أنا دكتورة نادرة، ومعايا دكتور نديم، جايين بخصوص مدام هدى رأفت.

تغير وجه الرجل للحظة، ثم قال وهو يشد بنطاله:

- المدام مش هنا.

تدخلت أنا:

- عارفين، إحنا جايين من المستشفى اللي محجوزة فيها المدام، كنا محتاجين نقابل جوزها.

- استنوا هنا دقيقة.

انصرف من أمامنا، قبل أن يظهر زوجها مهرولًا إلينا، كنت أعرفه جيدًا، اتسعت حدقتا عينيَّ وأخذت شهيقًا يكفي لملء جسدي كله بالهواء، ونكزت نادرة في ذراعها:

- هو والله هو، أنا شُفته.

تقدَّم أمامنا يفتح الباب في عجالة، واصطف إلى جانبه موظف الأمن محاولًا أن يثنيه عن تلك المهمة، وهو يزيح يده.

- هدى كويسة؟ حصلها حاجة؟

ART_OF_BOOK

- متقلقش يا فندم، المدام بخير... يعني لغاية دلوقتي.

بدأ يلملم شتات نفسه بعد أن نظر إلى السماء حامدًا لله.

- إحنا جايين عشان ميحصلهاش حاجة، الحالة صعبه جدًّا، ومحتاجين مساعدة حضرتك.

- اتفضلوا.

دخلنا، المكان كان مألوفًا لي بشكل كبير، حتى الهواء ما زال يحمل عطرًا باهتًا أعرفه جيدًا، كأن الحلم عاد على شكل واقع مؤلم.

أشار إلينا بالجلوس، وجلست رافعًا رأسي أدور به في كل مكان في القصر، أتأكد من كل التفاصيل التي أتذكرها، لم يكن تصرفي أبله بالنسبة إليه، من المؤكد اعتياده على انبهار ضيوفه من العامة بقصره، ولكني لم أكن منبهرًا، فكل مكان أتأكد من رؤيته من قبل كان يقربني من انهيارٍ وشيك.

بدأتُ في الحديث معه حتى ننتهي من هذا الأمر سريعًا، وأؤكد لنادرة:

- إحنا مش عايزين نضيع وقت حضرتك، بس إحنا الدكاترة المسؤولين عن حالة مدام هدى، الحالة صعبة أوي ونسبة علاجها ضئيلة جدًّا، لأننا مش عارفين نوصل لسبب الاضطراب اللي عندها إيه، ففكرنا إن حضرتك ممكن يكون عندك حاجة تساعدنا بيها.

كان يجلس أمامي ضامًّا عصاه بين كفيه، قال بنبرة هادئة تميل إلى الحذر:

ART_OF_BOOK

- أقدر أساعدك إزاي؟

- ممكن حضرتك تحكيلنا بالظبط إيه اللي حصل في الفترة الأخيرة؟ يعني قبل ما يظهر عليها أي حاجة غريبة عن الطبيعي.

نادرة قلبت صفحة من ملف في يديها، وحاولت اصطناع حالة مهنية.

ظهر عليه توتر نسبي، فالوضع لم يكن جلسة ودية مع طبيب نفسي بل تحقيقًا رسميًّا، حتى شعرتُ بأني من المفترض أن أضع سيجارة كريهة بين شفتيَّ أسفل شارب عريض.

- إحنا متجوزين بقالنا حوالي سنتين، قعدنا سنة عادي زي أي زوجين في الدنيا. مفيش جديد، هي موجودة في البيت وأنا دايمًا مشغول بره، قبل ما يحصل... يعني حصلنا مشاكل كبيرة في حياتنا، أنا مكنتش بخير الفترة دي بس ده طبيعي، وبالعكس وقتها هدى كانت هي اللي بتساعدني وبتحاول تخرجني من اللي أنا فيه.

- اللي حصل ده كان حاجة شخصية مش حابب تتكلم عنها؟

- مبحبش أفتكرها.. بس كل الناس عارفة عادي، خسرت ابني الوحيد... سليم.

عند ذكر سليم، تركت نادرة القلم من يديها يسقط وظهر عليها الفزع، ثم أكملت استجوابي له:

- طيب أنا بعتذرلك، وأنا عارف إن ده شيء شخصي.. بس أوقات لحظة الموت نفسها بتكون صدمة، بتفضل مكبوتة في الإنسان لفترة وبعدها بتظهر في تروما معينة أو

ART_OF_BOOK

فوبيا من حاجة، وده بيحصل كتير جدًّا، بعتذرلك مرة تانية بس مسموح إنك تقولي، ابن حضرتك اتوفى إزاي وإن كانت المدام شافت ده ولا لأ.

سكت، ثم رفع رأسه إلى أعلى باتجاه غرفة سليم، وقال بصوت مبحوح لا غضب فيه ولا ألم.. فقط الفراغ:

- المخدرات... المخدرات قتلته، بس قبل ما المخدرات تقتله، أنا قتلته لما سيبته يواجهها لوحده.

كلماته بدأت تنكسر، يتنفس بين كل جملة، يمسك بعصاه بقوة، كانت هي الشيء الوحيد الثابت هنا.

- دخلت عليه أنا وهدى في يوم لقيناه... يومها قالتلي إني عملت كل اللي عليا معاه، حاولت أصدقها ومعرفتش، أنا معملتش أي حاجة من اللي عليا.

أظن أن ذلك الرجل استغل وجود طبيبين لاقتناص جلسة مجانية؛ كل كلمة تخرج منه كانت انتصارًا لعقلي، دليلًا على أني لا أستحق العلاج.. على الأقل حتى الآن!

أتابع نادرة لتذكيرها بما أخبرتها به، وتحول وجهها إلى خوف حقيقي، يخفي وراءه ندمًا على تدخُّلها في هذا الأمر.

- وإمتى بدأت الأعراض على مدام هدى؟

- زي ما قلتلك أنا اللي مكنتش كويس.. هي كانت كويسة وطبيعية، لغاية ما مرة واحدة بقت عصبية جدًّا، كنت بشوفها من بعيد قاعدة بتكلم نفسها.. لأ وبتتخانق؛

ART_OF_BOOK

كنت بقول إن ده من الضغط، لإنها عمرها ما كانت كده من ساعة ما عرفتها، كنت بصحى في نص نومي، أدوَّر عليها، بتبقى مستخبية في الضلمة من حاجة وبتعيط، كنت بحاول أطمنها على قد ما أقدر وأنا مش عارف هي بتهرب من إيه، لغاية ما في النهاية بطلت تاكل، حاولت معاها كتير، يوم.. اتنين.. تلاتة، بعدها جسمها مستحملش.. وقعت من طولها... في المستشفى قالوا إن معندهاش حاجة جسدية وإن الموضوع نفسي، والباقي أظن إنك عارفه أكتر مني.

شكرته على وقته الثمين، أشفقتُ على حالته؛ شعرتُ بشيء يشبه الغضب؛ غضب عليه لأنه صدَّقها وغضب منها لأنها خذلته، وغضب مني لأنني لم أخبره بالحقيقة، هناك أشخاص يقتلون برفق، يخونون بابتسامة عطف؛ وعندما يرحلون يتركوننا ممتلئين بشوقٍ تجاه ذلك الوحش الطيب.

كانت نادرة تقف بمحاذاتي في صمت، تحرك عينيها في كل مكان بتفكير عميق؛ تحرك شفتيها دون إصدار صوت؛ كأنها عملية حسابية معقدة تحاول حلها؛ دون جدوى، نظرت إليها منتظرًا النتيجة، قبل أن تبدأ في التساؤل:

- إزاي؟ عرفت كل ده إزاي؟! ولو اللي إنت بتقوله صح... ده يبقى جريمة. هدى دي مجرمة والمفروض تتحاكم؛ بس هنثبت ده إزاي، وكده يبقى اللي إنت شُفته عن حسن برضو صح، وليه إنت اللي بتشوف ده، ما أنا معاك ومشوفتش حاجة؛ يعني إنت ملعون ولا ملبوس ولا ده إيه؟!

أمسكت برأسها، ثم لوَّحت بيديها متجهةً بناظريها إلى السماء:

ART_OF_BOOK

- أنا هتجنن!

حاولت أن أهدئ من موجة الأفكار برأسها:

- أنا معرفش حاجة، ومعرفش ليه بشوف ده، ومعرفش البنت الصغيرة اللي بشوفها مع العين دي مين وإيه علاقتها بكل ده.. فاكرة لما قابلت ياسين صاحبك واتكلمت معاه، قالي إن كل مكان عنده سر بيختار حد ويقولهوله، أنا معرفش إشمعنا أنا، بس أكيد هفهم، دلوقتي أنا اتأكدت إني مش مجنون، إن كل ده كان حقيقي، رغم إني برضو بشوف ده جنان، بس جنان عن جنان يفرق، المهم إني مش موهوم.

وضعت يديها على خصرها وبدأت تتنفس برفق:

- طب هنعمل إيه دلوقتي؟

- هنروح وردية بالليل ونشوف ممكن نعمل إيه مع هدى.

عدنا إلى ليڤان ليلًا، عندما خطونا إلى الداخل، كان المكان خاليًا من الجميع وكأن ليڤان قد هُجر، لكن هناك أصداء بعيدة كلما اقتربنا من الطابق الثالث، كانت الأصوات تزداد، رأيت الممرضين يتحركون في فوضى، أعينهم مذعورة وأحدهم يضغط على جهاز إنذار بيد مرتعشة، كانت الغرفة مفتوحة.. دخلنا، وكما المتوقع، رؤية المشهد المعتاد في كل أفلام الرعب، بعد معرفة سرٍّ ما؛ يهرول البطل ليلحق بالضحية ولكنه يتأخر بعض الدقائق، فيقلتها قاتل متسلسل، أو يلتهمها وحش أسطوري، أو يهشمها أحد الأشباح، أما في حالة هدى، فليڤان لا يلطخ يديه بالدماء، ليڤان يقتلك بذنب أمس، طفلة بريئة تخلصك من آثامك، بأناملها الصغيرة تزيح عن قلبك وعقلك

ART_OF_BOOK

معاناة خطاياك، تقوم باستعجال محاكمتك الأخيرة، تذكرة سريعة لمقعدك في الجحيم، فمرحبًا بك في منزلك الأبدي.

في أثناء تحضير الممرضة أدوية المساء كعادتها، هدى كانت تراقبها بصمت طويل، لم يُثِر شك أحد، ثم فجأة، نهضت من سريرها وهجمت عليها، انتزعت الحقنة من يديها قبل أن تنطق بكلمة، ملأتها هواءً حتى الحافة، نظرت إلى الممرضة للحظة واحدة فقط، ثم غرست الإبرة في رقبتها، لم تصرخ ولم تتحرك بعدها كثيرًا، كل ما سُمع هو صوت الهواء وهو يدخل الجسد، صوت خفيف لكنه كان كافيًا لينهي كل شيء.

سقطت على الأرض والحقنة لا تزال في يدها، قيل إن الممرضة حاولت أن تمنعها، لكن الوقت كان قد فات.

ماتت هدى في سكونٍ قاسٍ.. ابتسامة واهية على فمها، كانت تعرف تلك النهاية، التي كانت تنتظرها منذ البداية.

لم اندهش!

كنت أتوقع أن النهاية ستكون بهذا الشكل؛ باردة، بلا مقاومة، كأنها نظام عدالة قديم يُنفَّذ من تلقاء نفسه.

لكن نادرة لم تحتمل، كانت واقفة عند الباب تغطي فمها بيدها، وتحدق في الجسد الساقط على الأرض، قالت بين شهقة وأخرى:

ART_OF_BOOK

- ملحقنهاش!

عدنان كان يقف صامتًا فعيناه معتادتان على المشهد كمن يراه للمرة الثانية لا الأولى، لم يتحرك، لم يقترب، بقي مكانه، يحدق في زاوية الغرفة، بعد دقائق تحرّك، خرج من الغرفة دون أن يقول شيئًا، تحركتُ وراءه، حين وصلت إلى مكتبه. طرقت الباب، ثم دخلت مباشرةً، دون انتظار إذن.

عدنان كان يقف عند النافذة يدخن سيجارة بيدٍ ثابتة، الدخان يتسلق الهواء أمامه.

قلت وأنا أغلق الباب خلفي:

- كان المفروض آخد بالي من بدري إن إنت كمان بتشوفها!

التفت نحوي، عيناه مبللتان بالعرق لا الدموع، قال بصوتٍ خافتٍ مبحوح:

- بشوف مين؟!

- مفيش غيري أنا وأنت بس اللي شبه بعض هنا.. إحنا الاتنين ظاهر علينا إننا مش متفاجئين، كإننا بس كنا مستنيين نشوف النهاية هتبقى إزاي!

دخن نفسًا آخر عميقًا وأخرج الدخان بكثافة، ثم أنزل رأسه إلى أسفل، بعد أن أيقن اكتشاف الأمر.

- بتشوفها من إمتى؟

- من زمان... من أول ما جيت، كنت يمكن قدك أو أكبر منك بشوية، الأول كان

ART_OF_BOOK

الموضوع صعب أوي.. كنت قربت أتجنن بس بعد كده اتعودت.

- اتعودت؟

- إيه مستغرب؟ ده إنت اتعودت أسرع مني، من تاني مرة.

- أنا متعودتش.. أنا بس عرفت الحقيقة، بس مفيش حاجة تخليني أتعود على موت إنسان.

رمقني بتعجب وعقد حاجبيه:

- وهما ميستاهلوش؟

راوغني بسؤاله الذي لم أكن جاهزًا للرد عليه الآن.

- سكِت يعني.. دول مش ضحايا يا نديم دول مجرمين، يستاهلوا أكتر من كده، وهما اللي بيختاروا نهايتهم بإيديهم، أنا ممكن أساعد حد عقله خانه، لكن أساعد حد خان عقله؟ حد قتل؟ طب ولما اللي قتل يعيش بمساعدتي، مبقاش شريك معاه في جريمته؟!

- بس دي مش وظيفتنا يا دكتور.

- بالظبط، إحنا بنعالج.. أنا عمري ما وقّفت علاج عن مريض بعد ما شُفت حقيقته أو بطلت أشوف شغلي، بس ده قدر وجزاء، النتيجة الطبيعية لأفعاله، يمكن البنت دي تكون ملاك، رسول جاي يأدّي مهمة محددة، عقاب إلهي في الدنيا، أنا مليش عليه سلطان.

ART_OF_BOOK

- أكيد فيه طريقة نوقف بيها كل ده، لما نفهم ليه ده بيحصل!

- عايز تغير نظام بقاله سنين! وتفتكر أنا محاولتش أفهم، ليڤان كده وهيفضل كده، إحنا هنا الدرك الأسفل، ليڤان مقابر كبيرة يا نديم مش مستشفى، هنا بيعيش أسوأ أنواع البشر أيامهم الأخيرة، أنا بقيت بعرفهم من نظرة أول ما بيدخلوا المستشفى، بعرف إن دول اللي عليهم الدور.. خبرة بقى!

- بس أنا مش هسكت على الأقل عشان أفهم.. أفهم ليه ده بيحصل، وليه إحنا بس اللي بنشوفها، اختيارنا إحنا وراه سر!

- إحنا مش أول ناس.. كان فيه قبلنا كتير وهيبقى فيه بعدنا أكتر، اشتغل يا دكتور، أنا عارف إنك عايز تبقى دكتور، بس حنوتي مش وحش برضو، هو هو نفس المرتب.

وقبل أن أخرج وضع يده على كتفي هامسًا:

- أقولك على سر.. هي اللي هتختار مين يعرف سرها، عايزة حد تثق فيه تحكيلة حكايتها وملقتهوش لغاية دلوقتي.. هو الأكيد إنه مش أنا، يمكن أكون مش قد الثقة دي، الأطفال برضو عندهم طريقة في الثقة بالناس، يمكن تبقى إنت، مين يعرف!

خرجتُ من مكتبه هربًا من أن أصدق ما قاله، كانت كلماته تستقر في رأسي.

بعد يومين من تعافي ليڤان بعد كل قتيل جديد، تلك الأيام التي ينظف فيها ليڤان الدماء من جدرانه ليعود كما كان، هناك أوراق تُمضى، جثة تُفحص، كلمات تتناثر بين الموظفين جميعًا، ثم النسيان.

ART_OF_BOOK

بعد يوم طويل سرتُ نحو الحديقة الداخلية التي تتوسط المشفى، لم تكن الحديقة جميلة، مجرد مساحة صغيرة من العشب المتعب، والمقاعد الرخامية تلمع على استحياء من انعكاس ضوء بعيد لا أعرف مصدره، جلست على أقرب مقعد استندت إليه ككفيف عجوز، كنت أرتب ما حدث، أجمع أوراقًا تطايرت، ولم أعد أعرف ماذا كانت في الأصل.

سمعت وقع خطوة خفيفة، ثم رأيت ظلًّا يمر بجانبي قبل أن يستقر بجواري.

نادرة...

لم تقل "ممكن أقعد؟"، ولم أنتظر أن تقولها، فقط جلست بجانبي وضمت معطفها إلى صدرها حتى تتحاشى البرد، ثم مالت بكتفها نحوي، وقالت بخفوت:

- حصل حاجة.. حد شيلك أي مسؤولية عن اللي حصل؟

هززت رأسي في رفض، كانت قدمي تعبث بالأرض بعنف كأني أبحث عن مخرج لتوتري.

- لأ دي حاجة منطقية.. مستحيل تحصل هنا.

- أومَّال مالك، إيه اللي شاغلك تاني؟

- عدنان.

- حكيتله... وصدَّقك؟

ART_OF_BOOK

- عدنان يوم موت هدى قالي إنه بيشوف نفس اللي بشوفه بالظبط.

تجمدت ملامح نادرة، في لحظة قصيرة مالت بجسدها إلى الخلف قليلًا، ارتفع حاجباها بلا وعي ثم انخفضا وهي تهمس إليَّ متلفتةً حولها:

- عدنان بيشوف نفس اللي بتشوفه؟

أومأت إليها مؤكدًا.

فأكملَت بهمس:

- وساكت إزاي؟! عشان كده كل مرة الموضوع مبياخدش أي وقت وبينتهي بسرعة: وكان بيقول عشان سمعة المستشفى، سمعت إيه، مستشفى إيه اللي كل اللي بيدخلها بيموت؟!

صحت أنا بصوتٍ عالٍ:

- معرفش.. معرفش يا نادرة.

مدت يدها نحوي وهمست باسمي في رجاء محاوِلةً تهدئتي، خفضت صوتي وكززت على أسناني، كانت الكلمات تخرج رغمًا عني.

- معرفش أنا المفروض أعمل إيه، أمشي وأسيب الشغل وأدوَّر بقى على أي حاجة تانية أعملها في حياتي، ولا أكمل ولا هيبقى مصيري زي حد من اللي بيموِّتوا نفسهم دول، ولا إيه اللي بيحصلي ده؟!

ART_OF_BOOK

فركت وجهي في عنف وشبكت أصابعي في محاولة لكبت غضبي.

- أنا مينفعش أفشل، أبويا مستني إني أكون أحسن دكتور في الدنيا، حتى لو دكتور مجانين، أنا لو فشلت هي هتشمت فيا، أنا معرفش هي فين، بس أكيد بيوصلها أخباري يعني.. حتى لو من باب الفضول مش الاهتمام، مينفعش يوصلها إني معرفتش أبقى حاجة من غيرها، لازم يوصلها إن الأفضل ليا فعلًا إنها متبقاش موجودة.

- هي مين؟

-أمي...

- ليه بتقول كده؟!

- ما إنت متعرفيش حاجة، اللي تسيب ابنها وهو لسه مبقاش واعي لأي حاجة في الدنيا غيرها، اللي تخلي طفل يعيش حياته كلها حاسس إنه عمل ذنب عشان كده عاقبته ومشيت... يبقى قاصدة تدمر حياتي، عارفة... أنا كنت بحسد زمايلي اليتامى اللي في المدرسة لما كانوا بيقولولي ماما عند ربنا، كنت بقول يا بختهم هما عارفين أمهم فين، عايزاها ترجع تلاقيني قاعد جنب أبويا على الكنبة قدام التلفزيون؟ ده مش هيحصل، حتى لو هموت هنا هيبقى أحسنلي!

سالت دمعة من عيني قبل أن أدركها، باغتتني، فمسحتها سريعًا وحرَّفت وجهي إلى الجهة الأخرى لأخفي ما استطعت من ملامحي، فمدت نادرة يدها تُربِّت على كتفي، محاوِلةً أن تسحب عني ما بقي من ألم.

ART_OF_BOOK

- متقلقش ده مش هيحصل، أنا واثقة فيك، وواثقة فيا برضو بصراحة، لو معاك واحدة زيي بتساعدك أكيد هتلاقي حل بسرعة.

جاهدت لأبتسم لها.

- شكرًا.

بعد أن هدأتُ قليلًا، كنت قد خلَّفت أسفل قدمي أخدودًا صغيرًا، شعرت بارتطام حذائي بسطح صلب، زحزحت الحصى بطرف الحذاء ثم انحنيت، أبعدت التراب أكثر، ثم ظهرت حافة حجر صغير مستطيل، كان الغبار والعشب يمران فوقه لسنوات متتالية ثم نسياه، حين انكشف كله، لم يكن حجرًا عاديًّا، بل شاهد قبر صغيرًا، نقشت عليه يد مجهولة:

Maral Levan

1948 – 1941

مرت دقائق، وبعد اصطحاب عدنان إلى المكان، كنت أنتظر أي كلمة منه لأدرك أنه يفهم ما يراه، وقفنا نواجه الحجر وجهًا لوجه على ضوء القمر، لكن عيناه كانتا معلقتين بالاسم المنقوش، "مارال ليڤان"؛ ١٩٤١ – ١٩٤٨؛ طفلة في سن السابعة مدفونة تحت أقدامنا، ومع ذلك كانت قادرة على الهروب والصعود إلى أعلى لترينا الحقيقة، سألتُ عدنان بصوت منخفض:

- إنت تعرف حاجة عن القبر ده؟

ART_OF_BOOK

- أنا أول مرة أشوفه هنا.

- مين ليڤان؟ وليه بنته بتظهرلنا، أكيد تعرف أي حاجة صح؟

- كل اللي أعرفه إن المستشفى دي بناها دكتور من الأرمن اسمه ليڤان، وبعدها باعها ورجع بلده.. بس.

شعرت بشيء حاد يمر في صدري، كان صوته قد خذلني بعد انتظار معلومة منه توصلنا إلى حقيقةٍ ما، قلتُ له بصوت خرج أعمق مما توقعت:

- يعني أنا لما أحب أعرف حاجة عن بنت ماتت من ٨٠ سنة أعمل إيه؟

- نديم!

قالها بنبرة محذرة من تعدِّي حدود أدبي في تعاملي معه.

- أنا آسف.. أنا بس مش فاهم حاجة ومحتاج حد يفهمني.

قام بشد ظهره واضعًا يديه في جيبَي معطفه الطبي، ونظر إلى الشاهد قائلًا:

- ممكن أحاول أجيب تصريح وننقل القبر ده من هنا، أنا أقدر أعمل ده، أكيد وقتها كل حاجة هتتحل.

- أو هتتعقد.. مش هينفع نعمل أي خطوة قبل ما نفهم الحكاية.

***

في اليوم التالي لم أعد أسمع أي شيء حولي حتى صوت نادرة وهي تسألني: "طـ

ART_OF_BOOK

هنعرف إزاي"، بدا كأنه يأتي من مكان بعيد، باهت، مكتوم.. كنت منفصلًا عن اللحظة التي علِقتُ فيها أمام ذلك الحجر الصغير، أطلقت طرقعة بأصابعها أمام عيني، محاوِلةً أن تنتشلني من شرودي.

- نديم بكلمك.

- أنا آسف سرحت.

كنا نجلس في مقهى صغير بعيدًا عن المشفى، في ركن معتم، ويداها ملتفتان حول كوب قهوتها تحتميان بالدفء القليل الذي يصدر منه.

- طيب هنعمل إيه؟ إنك تدوَّر على خيط لبنت صغيرة ماتت من ٨٠ سنة ده حاجة تقريبًا مستحيلة!

كنت أتابع الشارع من خلف الزجاج، عقلي يدور في دوائر مغلقة من التفكير.

فجأة أخرجت نادرة هاتفها، وفتحت بسرعة شخص اتخذ قرارًا فجائيًا. قربت الهاتف من فمها، وبابتسامةٍ قالت:

- جوجو.. بقولك.

أشرت إليها على الهاتف، وحركت شفتيَّ بكلمة:

- مين؟

وضعت يدها على ميكروفون الهاتف وهمست إليَّ:

ART_OF_BOOK

- هسأل شات جي بي تي.

لوَّحت بيدي في الهواء، وانكمش وجهي وعلا صوتي:

- أنا فاكرك بتكلمي حد تعرفيه، هنعمل إيه بشات جي بي تي؟!

ضمت يدها وأشارت لي بالانتظار.

- لو عايزين نجيب سجلات شخص أرميني عاش في مصر من ٨٠ سنة في الأربعينات كده، نعمل إيه؟

بعد ثوانٍ خرج صوت روبوت ذكوري يلملم الحروف في محاولة لتكوين كلمات:

- إزيك يا نونة عاملة إيه؟

- نونة!!

مالت ناحيتي ورفعت رأسها، وضحكت وهي تقول:

- إيه بتغير عليا؟

- اتنيلي.. كل ده نونة إزاي!

ثم أكمل:

- علشان تلاقي معلومات عن العائلات الأرمينية في مصر أو سجلات الميلاد والوفاة القديمة، يُفضَّل تبدئي بمكتبة البطريركية الأرمينية؛ لأنها بتحتفظ بسجلات معمودية وميلاد ووثائق تاريخية بتعود لسنين طويلة، وفيها أرشيف كبير فيه وثائق تخص العائلات

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الأرمينية التي كانت مقيمة في مصر ومراسلات وملفات نادرة لا تتوفر في الكنائس العادية.

تحبي أقولك مين أشهر العائلات الأرمينية اللي عاشت في مصر؟

صاحت نادرة وهي تُقبِّل الهاتف:

- شكرًا يا جوجو شكرًا.

أغلقت الهاتف ورمقتني بنظرة غرور رافعةً كتفيها:

- شُفت سهلة!

بعد ساعة وصلنا إلى بوابة المكتبة البطريركية الأرمينية قرب جاردن سيتي. مبنى حجري قديم، جدرانه داكنة وفي أعلاه صليب نحاسي كبير، لم يكن المكان يشبه أي شيء في القاهرة، كأننا قد عبرنا الزمن.

اقتربنا من الباب الخشبي الواسع، ودخلنا إلى ممر طويل يفضي إلى مكتب صغير يجلس فيه رجل عجوز مهيب الملامح، وجهه يحمل تجاعيد يصعب إحصاؤها، يرتدي معطفًا طويلًا، يفقد لونه عند الكُمَّين من كثرة لمس الأوراق القديمة، وعلى صدره تتدلى سلسلة نحاسية قديمة تحمل صليبًا صغيرًا.

رفع الرجل رأسه، فلفحه نور خفيف من نافذة عالية فوقه.

قال:

ART_OF_BOOK

- أهلًا.. أقدر أساعدكم إزاي؟

عند طلب أي شيء من أي موظف أحاول دائمًا أن أرتدي وجهًا بريئًا مبتسمًا، يُسهّل عليَّ مهمتي في طلب الشفقة.

- إحنا سألنا وعرفنا إن هنا فيه سجلات قديمة عن العائلات الأرمينية.

هز الرجل رأسه ثم قال:

- السجلات موجودة بس مش مسموح لأي حد كده يطَّلع عليها، قولي إنت عايز إيه بالظبط عشان أقدر أساعدك.

ترددتُ للحظة، وقبل أن تتدخل نادرة، أمسكتُ بيديها لتصمت عندما سطعت في عقلي فكرة جيدة، أخرجتُ الكارنيه الخاص بي ومددت يدي به نحوه:

- إحنا دكاترة نفسيين من مستشفى اسمها ليڤان والدكتور المؤسس للمستشفى كان راجل أرميني عايش هنا تقريبًا في الأربعينات، وحاليًّا فيه تجديد في المستشفى.. وكنا عايزين نخلي مساحة صغيرة بتحكي تاريخ المستشفى، وده طبعًا مش هينفع من غير ما نضيف معلومات عن مؤسس المستشفى صح؟

استمر في التحديق في عينيَّ للحظات في محاولة لكشف كذبي، حينها تجمدت ملامحي على ابتسامة بلهاء، وأطلتُ التحديق في عينيه حتى أبعد عني الشبهات.

- اتفضلوا معايا.

الجدران كانت مغطاة بصور عائلات أرمينية قديمة، وجوه ثابتة تنظر خلفنا، توقف

ART_OF_BOOK

أمام باب خشبي صغير، أخرج مفتاحًا عتيقًا من جيبه، أداره فأصدر صوت احتكاك كأنه يفتح صدرًا يحمل الكثير.

دخلنا إلى غرفة واسعة، بها رفوف تمتد إلى السقف، وسجلات مصفوفة بعناية تثير الرهبة.. الغبار يتراقص في خيوط الضوء أمام أعيننا، وصدى صوت خطواتنا يضفي طبقة خفية من التوتر على المشهد.

قال الرجل:

- أرشيف العائلات.. هناك.

ثم أضاف:

- المجلد ده فيه تفاصيل كتير عن عائلات أرمينية فيه مؤرخ أهداه للمكتبة.

أشار إلى خزانة خشبية لها درجان كبيران، تقدمنا نحوها، امتلأت عيناي بقوائم قديمة.. أسماء.. تواريخ.. أختام كنسية.

حياة كاملة محفوظة بورق أصفر فقد صبره على الزمن، قلبت الصفحات ونادرة تقف خلفي تعد أنفاسي، وبعد وقت لم أُحصِه وقبل أن يتسلل اليأس إلى قلبي.. سقطت عيناي على اسم...

د. ليڤان هاكوب.

صدمت الورقة بيدي، أوقفتها حتى لا تهرب، اسم رب العائلة.. ليڤان هاكوب.. واسم الأم ممسوح جزء منه.. بقي منه فقط.. ماتيلدا، وفي الأسفل كانت صورة قديمة

ART_OF_BOOK

رمادية اللون بإطار أبيض، رجل في منتصف العمر يرتدي معطفًا داكنًا، يقف أمام مبنى المشفى نفسه، لكن بشكل أقدم، وبجانبه امرأة ترتدي فستانًا بكُمَّين قصيرين وحزام رفيع يحدد الخصر، وترتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة وأمامهما طفلة صغيرة، تمسك بطرف فستان أمها، كأنها تستعد لتركه، عندما ظهرت ملامح الطفلة، لم أستطع أن أرمش، كان هناك شيء خفي يشد عينيَّ داخل الصورة.

لمست وجهها بأصابعي، وشعرت بها، شعرت بملمس وجهها الناعم، حتى إنها كانت تحدق إليَّ، كما لو كانت ترحب بي كوننا تقابلنا مرة أخرى، همستُ معترفًا:

- دي.. هي.

كانت نادرة ترى الصورة، لكنها لم ترَ ما رأيته، فقط قالت:

- شكلها جميل أوي.

آفة النساء الجمال، يكفي أن يرَون وجهًا جميلًا حتى ينسين كل ما عداه.

أسفل الصورة كان هناك معلومات مُدوَّنة بخط اليد:

"الدكتور ليڤان هاكوب ١٩١٠ -؟".

طبيب نفسي أرميني قدِم إلى مصر عام ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الثانية، أسَّس مصحة ليڤان للعلاج النفسي، التي عُرفت آنذاك بتبنِّيها طرقًا حديثة في معالجة الاضطرابات العصبية، تُوفيت ابنته الوحيدة مارال عام ١٩٤٨، إثر سقوطها من الطابق الثاني داخل المصحة في حادثة أثرت بشدة في والدها، الذي غادر مصر بعدها بوقت

ART_OF_BOOK

قصير، وتوقف نشاط المصحة بعد رحيله.

تذكرت ذلك المشهد الذي رأيته في يومي الأول وظننته هذيانًا عابرًا، عاد الآن أكثر ثباتًا، جسدها الملقى على الأرض، شكل يدها الملتوية، فستانها الزهري، خيوط الدم التي حاوطتها، كنت أرى مشهدًا حقيقيًّا حدث منذ ما يقرب الثمانين عامًا.

أخرجتُ هاتفي في حذر، التقطت صورة للصفحة سريعًا، سمعت خبطات خفيفة على الخشب، التفتُّ، فوجدت أمين الأرشيف يقف بجوارنا.. قال:

- عايزين أي حاجة تانية؟

هززت رأسي في عجالة، وخرجت مني أسرع مما أتوقع:

- لأ خلاص شكرًا.

خرجتُ من هناك وأنا أشعر بأن مارال لم تعد تلك الطفلة المحتجزة داخل المشفى، مارال كانت قصة لم تُحكَ بعد.

أمضيت نصف الليل إلا قليلًا جالسًا على سريري والهاتف بين يديَّ، وكانت صورة مارال ما زالت مضاءة على الشاشة.

سند كان يتفحصها وينبح من حين لآخر، كان ذلك النباح لا ينتمي إلى اللعب أو الترقب بل النباح الذي يصدره الكلب حينما يشم شيئًا لا ينتمي إلى المكان.

- مش عارف يا سند، دي طفلة.. إيه اللي يخلي طفلة ماتت في السن ده تعمل كده، إيه اللي مخلي روحها مش مرتاحة، فيه حاجة ناقصة!

ART_OF_BOOK

رفعت الهاتف أكثر نحو وجهي، وعند اللحظة التي استقرت فيها عيناها في عينيَّ، سمعت صوتًا من الصالة.. صوتًا مكتومًا، كأن أحدًا يحاول أن يبتلع الهواء مرة واحدة ولا يستطيع، وضعت الهاتف جانبًا، وهرولت إلى الخارج.

وجدت أبي جالسًا على الأريكة، يده على صدره، وصوته يخرج متقطعًا، كأن رئتيه تحاولان أن تتذكرا كيف تعملان.

اقتربت منه وحاولت توسعة ياقة ثيابه:

- بابا.. فيك إيه؟

رفع رأسه وعيناه كانتا أوسع من الطبيعي، مكسوتين بذلك اللون الذي لا يأتي إلا من الخوف، قال وهو يسعل:

- أنا كويس... أنا كويس، بقالي كام يوم... حاسس إني مش قادر آخد نفسي زي الأول، كإني... كإني بغرق.

جلست بجواره، أمسكت بذراعه محاولًا أن أتحكم في اهتزاز يدي.

- طيب قوم معايا هنروح المستشفى.

- متخافش دي مبتكملش دقيقة وبتروح تاني، مش حاجة.

- لا تقلق طبعًا، حاول تقوم بس معايا.

أخبرتهم في ليڤان باعتذاري عن عدم الحضور اليوم بسبب نقل أبي إلى الطوارئ،

ART_OF_BOOK

وبعد فحوصات عاجلة وبعد ساعات من الكشف والأشعة والتحاليل التي لا حصر لها والتنقل من طبيب آخر، تبين أنه لا يعاني أيَّ مشكلة جسدية، كان جسده سليمًا تمامًا، بالطبع الخلل في مكان آخر لا تصل إليه الأجهزة.

مر يومان دون نوم، كنت أعيش بين الوعي والهلاوس، ذهبت إلى ليڤان رغمًا عن كل ذلك، بعد أن اطمأننت أن أبي يستطيع المكوث بمفرده لساعات، وأن تلك الحالة لن تُكرَّر مرة أخرى، وجدت نادرة في انتظاري، اقتربت مني ورمقتني بتلك النظرة بين القلق والعتاب.

- نديم إزيك، باباك عامل إيه دلوقتي؟

- الحمد لله دلوقتي بقى أحسن، الدكاترة بيقولوا إنه معندوش حاجة، بس أنا شُفته تعبان.

- ده طبيعي يحصل لأي حد لما يكبر في السن، إنت بس عشان بتحبه زيادة فقلقان عليه.

- ممكن.

ضمت يديها ومالت برأسها إلى الأمام:

- بس إنت اللي شكلك تعبان، إنت كويس؟

- منمتش، كنت قاعد جنبه بحرسه، خايف ليحصل أي حاجة في أي وقت.

تنهدت ثم قالت:

ART_OF_BOOK

- يبقى لازم تروَّح ترتاح متقلقنيش عليك.

ابتسمت وهززت رأسي وأنا بنصف عين مفتوحة:

- حاضر.

- بس قبل ما تمشي عدنان كان عايزك في مكتبه، كل يوم كان بييجي يسأل عليك.

فركت وجهي سريعًا، تنفست بعمق في محاولة لإفاقة ما تبقَّى مني، تجرعت قهوة كانت في يد نادرة، وضعت بها مخزون السكر لدولة البرازيل، وضربت بيدي على فخذي لأحفز نفسي على النهوض واتجهت إليه.

طرقت باب المكتب برفق آملًا ألا يرد عليَّ وأرحل سريعًا، لكن صوت "ادخل" جاء دون انتظار، كأنه كان يعرف أني أقف وراء الباب.. دخلت، كان عدنان يقف عند مكتبة صغيرة في غرفته، يُرجِّع مجلدًا إلى مكانه، كان وجهه متعبًا أكثر من المعتاد، تلك الهيئة التي تغلب عليها شعر غير مرتب وعينان مال لونهما إلى الأحمر، وترتسم خطوط عريضة على جبهته. جلس خلف المكتب وأشار لي بالجلوس:

- إزيك يا نديم، والدك عامل إيه دلوقتي؟

- دلوقتي أحسن، شكرًا لسؤالك.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بصوت منخفض ورأس مطأطأ:

- أنا.. بدأت في إجراءات نقل رفات مارال من المستشفى.

ART_OF_BOOK

لا أعلم الآثار الجانبية لتلك الفعلة، لكن هناك خوف سقط في صدري سقوط حَجر في بئر.

- هنشيلها من هنا خالص، كفاية اللي حصل، على الأقل عشان نقدر نشتغل ونعيش طبيعي.

- بس أنا قلت لحضرتك إننا محتاجين وقت نفهم.

- وصلت لحاجة؟

- إحنا روحنا المكتبة و...

قاطعني قبل أن أكمل وكرر كلمته:

- وصلت لحاجة؟

- لأ، كل اللي أعرفه إنها ماتت هنا، أنا شُفتها أول ما جيت، بس أكيد فيه حاجة ورا موتها هي اللي مخلية كل ده يحصل.

- وإحنا مش مباحث إحنا دكاترة، وحتى لو.. تقدر تقولي هتعرف إزاي حاجة حصلت بعد كل السنين دي!

سكت للحظة، ثم أنهى كلامه بوضوح:

- الموضوع منتهي، أنا كنت بقولك إني اتعودت على اللي بيحصل، بس أنا زهقت من كتر ما بقيت أشوف حياة ناس متخصنيش!

ART_OF_BOOK

الفصل الثالث

ما لا يجب أن أراه!

مضت الأيام التالية بتأنٍّ غير معتاد، هدوء من النوع الذي يجعل المرء ينتظر الأسوأ، وكأن كل ما حدث الليالي الماضية ما هو إلا خيال مرَّ سريعًا ثم اختفى، لم يحدث شيء غريب في ليڤان، لا مرضى مجرمون ولا شبح لطفلة صغيرة، حتى تلك العين المرسومة بدأتُ أنسى ملامحها الأصلية، كانت تلك.. أكثر الأيام طبيعيةً عشتها منذ وصلت إلى المشفى؛ مريض نوبات غضب وآخر يمر بصداع شديد عند التوتر، وتلك المرأة التي قرأت عن أعراض اضطراب ثنائي القطب فتقمصَت المرض كالمعتاد. بدأت أفكر أن قرار عدنان ربما كان هو الشيء الوحيد القادر على تهدئة الأوضاع، أو على الأقل، جعلها تتراجع خطوةً إلى الخلف، لم يُنقل الرفات رسميًّا، ولكن بمجرد التلويح بالأمر عاد المشفى كما كان؛ الأطفال هم الأطفال حتى وإن كانت إحداهم شبحًا صغيرًا يرسم عينًا ملعونة ويتحكم في الوعي الجماعي لنا، لكنها ستظل في النهاية.. طفلة.

ربما كان انتهى الأمر منذ سنوات لو قرر عدنان الصراخ بها في إحدى المرات:

- مارال.. لو مبطلتيش قتل في المرضى والله هحبسك في أوضة العزل!

أكثر ما كان يهمني أن العلاقة بيني وبين نادرة أخذت شكلًا مختلفًا، صرنا نمضي وقتًا أطول معًا، نمشي قليلًا، نتشارك الذكريات؛ نجلس في مقهى نترك الكلام يتحكم

ART_OF_BOOK

بنا كيف يشاء دون أن نراقب الوقت، ونُلمِّح من وقت لآخر بما نشعر به بصدق، كانت تضحك كثيرًا، وأبتسم أنا بطريقة لم أعرفها منذ أن جئت إلى الحياة.

لكن في البيت، كان الوضع مختلفًا؛ حالة أبي لم تهدأ كما توقعت، كانت تختفي يومًا وتعود يومًا، تأتيه على شكل نوبات قصيرة، ومع كل يوم يظهر عليه شيء جديد، تفصيلة صغيرة لا يلتفت إليها غيري.. نظرة غريبة تطول أكثر من اللازم، ارتباك بلا سبب، وذلك الخوف الصامت الذي لا يحاول شرحه، وبين كل ذلك.. في لحظات قليلة.. كنت أتذكر رغمًا عني.

كنت أتذكر مارال، أراها آتية من مكان بعيد داخل عقلي، يضرب في عينيَّ مشهد جثتها، فأغمض عينيَّ سريعًا ليزول ولكنه يحاصرني من كل مكان، فأستسلم له بكل خضوع.

وفي صباح بدا كأنه أكثر وضوحًا من اللازم، ظهر عدنان سريعًا عند باب غرفة الأطباء، يداه خلف ظهره وعيناه تحملان ذلك الثبات الحذِر، الذي كان يستخدمه أمام الجميع إلا أمامي، أشار لي أن أخرج للحظة، وقف بجواري وقال بصوت منخفض:

- هتتشال بكرة.

ثم تابع بنبرة واثقة:

- أنا خلصت كل حاجة، بكرة الساعة ١٠ الصبح، مش هتبقى موجودة هنا تاني.

ART_OF_BOOK

كان جزءٌ مني يريد أن يصدقه وجزءٌ آخر ينكمش من الفكرة نفسها، كنت أخشى أن يصبح نقلها ليس خطوة للتطهير، إنما خطوة لإيقاظ شيء أكبر.

عدت إلى البيت تلك الليلة بلا رغبة في الكلام ولا استعداد لسماع أي شيء يخص المشفى، كان البيت دائمًا هو المكان الذي يبقى خارج حدود كل هذا الجنون، فتحتُ الباب وناديتُ بصوتٍ عالٍ: "بابا أنا جيت".

لكن الصوت ارتدَّ من الجدران وعاد إليَّ، لم يكن في الصالة، كنت متأكدًا أنه كان جالسًا هنا منذ قليل؛ الوسادة غائرة قليلًا، والبطانية نصف مطوية، وكأن قامته تركت أثرها ثم اختفت، ولم يكن بالمطبخ ولا غرفته، كان صوت التلفاز عاليًا، الاتصال مقطوع، يصدر منه صفير مزعج ممتزج بصوت خافت يشبه الاحتكاك، صوت نباح سند مكرر ومزعج أيضًا، نباح هجوم على دخيل على البيت، عندما عدت إلى الصالة وجدت سند يقف ويستعد للهجوم، تحركت ناحيته.

لكن الشيء الذي أوقف خطواتي، أن محل نظراته ما كان يقف بجانب الكنبة.

صوت بسيط خرج من حلقي دون قصد، أقرب إلى الهواء منه إلى الكلام.

- إنتِ؟

كانت مارال.

تقف بفستانها الأبيض القديم الذي رأيته في الصورة، شعرت بأن الجدران تقترب مني بعمق، كأني أقف وسط الظلام وحدي، فللمرة الأولى تظهر مارال خارج حدود ليڤان.

ART_OF_BOOK

وتلك المرة في منزلي!

ثم رأيت ما هو أسوأ، وسط صوت "الوَش" الأبيض على التلفاز، تكوَّنت تلك العين، مددت يدي نحو الحائط لأتماسك، لكن بصري لم يجِد عنها، كانت هادئة بشكل مريب كعادتها، تقف بيني وبين الحقيقة، التي لم أعد أملك الهروب منها.

- أبويا فين؟ هو ملوش دعوة بأي حاجة، أنا هقنع عدنان إنك تفضلي في مكانك، أوعدك.

قلتها وأنا أرتجف توسلًا إليها.

رفعت رأسها وحدقت إليَّ، وفي اللحظة التي التقت فيها عيناها بعينيَّ، سقطت الصالة في ظلام مفاجئ، لم أميز فيه سوى مارال، وتلفاز به عين، والسراب، قبل أن يتبدل كل شيء حولي.

ظهر أبي شابًّا، لم يكن بملامحه التي تعوَّدتها، كان أنحف، وأكثر حماسًا، في عينيه تلك اللمعة التي لا يراها الأبناء في آبائهم أبدًا، وهناك كانت تلك المرأة.. أمي.. أو النسخة التي لم أرَها قط، كانا يسيران على شاطئ النيل، ليل قديم، وأصوات بعيدة لا أستطيع تمييزها، يده في يدها... أعلم أن هذا المشهد سبق وجودي أنا؛ شعرت بأني لا أنتمي إلى هذا العالم.

ثم رأيتهما في بيت صغير، كانت تضحك وهو يقترب منها ليهديها شيئًا ما في يده، لا أرى ما هو، لكني أرى السعادة التي انطفأت فيه منذ سنوات، رفعت يدها فرأيت ذلك اللمعان الذي يصدر من خاتمها.

ART_OF_BOOK

المشاهد تتغير بسرعة؛ أرى بيتنا الآن ولكن قد أزيح عنه الغبار، أو بالمعنى الأدق لم يتكون الغبار بعد، أبي يضع يده على كتفها، أمي تحمل طفلًا، أعرف أنه أنا حتى لو لم يظهر وجهي، ثم تغيرت النبرة؛ البيت أصبح باهتًا، صرخات متبادلة بينهما، أمي تقف عند الباب وتقول شيئًا لا أسمعه ولكن معناه "الرحيل".

أبي يتقدم باتجاهها وعلى وجهه غضب ممتزج بالتردد، وهي تبكي وهو يحاول إيقافها بعنف.

المشاهد أصبحت تتحرك بسرعة أكبر، دورات عديدة تُعاد بترتيب محدد، صرخات وصرخات وصرخات وتهديد بالرحيل، ثم مودة مزيفة، قبل أن يُعاد كل شيء.

الرؤية تهتز، الألوان تنطفئ، وليل أعرفه وظل محفور في ذاكرتي إلى الأبد.

أرى أمي وهي تغادر البيت، أقف أنا خلف الباب أحاول اللحاق بها إلا أن أبي منعني، باب يُغلق خلفها وحقيبة تجرها بها كل ما كان يثبت أن هناك سيدة مرت بذلك البيت يومًا ما، رأيت أبي، لم يكن يبكي ولم يكن غاضبًا، كان واقفًا في منتصف الصالة، بعينين لا أعرفهما؛ عينين تشبهان بداية الجنون.

انتقلت إلى مكان آخر، كنت على مركب صغير، لم أعد أرى الشاطئ ولا الحافة، كنت محاطًا بالظلام من كل مكان، المركب كان يتمايل في قلب الماء كأنه يرفض رُكابه، القمر كان مكتملًا، منعكسًا على النيل كعين مفتوحة، صوت الماء يضرب الجوانب بإيقاع يتكرر، يشبه دقات قلب مذعور.

ART_OF_BOOK

رأيت أبي وأمي متقابلين، هو على المقعد الخشبي الضيق وهي عند الحافة، كانت تصطنع التحدي، وهو يحاول إظهار تودد لا أصدقه، أبي يميل إلى الأمام يحاول أن يمسك يدها، لكنها تسحب يديها سريعًا وترفع نظرتها إليه بمرارة.

"كفاية.. خليني أمشي، مبقاش ينفع خلاص".

أبي ينظر إليها طويلًا، ويهز رأسه في قبول.. ولكن في لحظة، وقبل أن تلتفت إليه، باغتها بصفعة قوية، رأيت رأسها يدور مع الضربة، ثم جسدها يترنح إلى الخلف، وعينيها تتسعان بصمت مخذول، قبل أن تخبوا فجأة... ثم فقدت وعيها.

سقطت على أرضية المركب، جسدها ارتطم بالخشب وأصدر صوتًا جعل الدم يجري في عروقي بطريقة لم أعرفها من قبل، صرختُ في أبي:

"إيه اللي إنت عملته ده؟!".

ركضتُ نحوه، حاولتُ الإمساك بذراعه، لكن.. يداي مرتا من خلاله، اخترقتا جسده كأني دخان، لم أكن قادرًا على المشاركة في حدث انتهى منذ سنوات، كنت ذلك الدخيل غير المُرحَّب به في ذلك الزمن.

صرخت مرة أخرى ولكن الصوت لم يحرك حتى الهواء.

أبي لم يسمعني، لم يشعر بي، تلك هي لعنة ليڤان، أن تصبح شاهدًا يُجبَر على رؤية الحقيقة دون التدخل لإصلاح أي شيء.

ركع أبي بجانب جسدها، أمسك ذراعها المرتخية، ثم مد يده إلى الصندوق

ART_OF_BOOK

الخشبي، وأخرج حجرًا ثقيلًا كان ملفوفًا بقماش سميك، يشبه الكفن، رفع قدمها، وربط الحجر بكاحلها.. بعُقد عديدة حتى لا تفلت.

وقفتُ أمامه، صرخت في وجهه، لوَّحت بيدي، بكيت وبكيت وبكيت، ترجيته في خنوع أن يتركها.

تعلق بصري بجسدها النائم بين يديه، تلك المرة نطقتها وأنا أقصدها وأنا أشعر بها وأرجوها: "ماما".

وقف أبي، نظر إلى وجهها الغائب، ثم أمسك كتفها ودفع الجسد إلى حافة المركب، رأيت جسدها ينقلب، رأيت عينيها تتحركان من وراء جفنيها، وكأنها تستنجد بي.. ثم سقطت.

لم يكن صوت سقوطها عاليًا، ما كان إلا همسًا؛ همسًا ابتلع ذكرى، وأشار لي في عتاب.

اختفى الجسد مع الحجر واختفى كل شيء معه.

وتركتني واقفًا في صالة بيتي والظلام حولي، ومارال ما زالت على مقربه مني.

سقطتُ على الأرض دون أن أشعر، ركبتاي ارتطمتا بالبلاط بقوة؛ لكن الألم الوحيد الذي أشعر به كان ضربة تشق صدري، ولا تجد مكانًا لتستقر فيه؛ أجهشتُ بالبكاء؛ بكاءً صاخبًا، وصوتي بلا إرادة خرج مناديًا أمي؛ خرج النداء من حلقي مكسورًا، مُبلَّلًا بالدموع التي لم أستطع إيقافها.

ART_OF_BOOK

أدركت في لحظة واحدة، كم كنت أكرر سردية أبي كالأحمق، أنها رحلت.. إلا أنها كانت تهرب من رجل قتلها لأنها حاولت النجاة! كل شيء يتكرر في رأسي بسرعة تجرف الوعي، السنوات التي صدقت فيها أبي.. التي دافعت عنه فيها...

ضربتُ الأرض بيدي مرة ثم مرة ثانية، ثم تركت نفسي تسقط تمامًا على الأرض، لم أعد أحمل جسدي.

وفي أثناء ذلك، مدت يدها الصغيرة نحوي، لم تكن يد روح، ولا يد ظل، كانت يد طفلة، خفيفة.. دافئة، وضعت كفها على ظهري، لمسة خفيفة؛ لكنها عبرت صدري كله، وبلمسة صغيرة ربَّتت على كتفي، طبطبة طفلة لا تؤذي ولا تخيف.

رفعتُ رأسي والدموع ما زالت تحجب نصف رؤيتي، لكن الشيء الوحيد الذي كنت أميزه، عيناها.. كانتا مسمرتين عليَّ، نبرة شفقة، صافية، تشبه طفلًا يرى إنسانًا كبيرًا يبكي.. فقط.

لم ترفع رأسها بطريقة درامية، ولم تفتح فمها وتصرخ لتخيفني مثل تلك الأفلام الأجنبية، ولم يتغير ظلها على الأرض.

فقط حركة بسيطة لعينيها، كأنها تقول بصمت طفولي: إنها آسفة من أجلي: آسفة لأن الحقيقة كسرتني.

حينها اهتز الهاتف على الأرض بجانبي؛ رقم مجهول؛ لكن قلبي عرفه قبل أن أعرف؛ كنت أعلم أن ما رأيته ترك بابًا مفتوحًا لكارثة ثانية لم تُعلَن بعد.

ART_OF_BOOK

لا أتذكر كيف خرجت من البيت.. الباب.. الشارع، أو حتى ما الذي أقلني إلى هناك.

كل شيء حدث في عالم أنا لم أكن حاضرًا فيه، الصورة التالية كانت كضربة على رأسي، عند ضفة النيل، كان المكان يضج بالحركة، زحام الناس وأضواء زرقاء تهتز على الوجوه، سيارة إسعاف وسيارة شرطة، شققت طريقي بينهم بوجه لا يعرف التعبير، كنت أعبر حلمًا لا أقدر على تصديقه.

كان الجميع ينظر باتجاه واحد، إلى سيارة إسعاف مفتوحة الباب.

اقتربت، وبين أطراف بطانية رمادية، غُطي بها الجسد، لمحتُ شعر أبي مبللًا، ينسدل على جبين فقد حرارته، لم يكن هناك أثر لصراع ولا كدمة، لم يكن يشبه النوم ولا يشبه الموت، كان يشبه الاستسلام الأخير.

وقف مسعف إلى جانبه، وبجواره ضابط يمسك ورقة، ويقول بصوت منخفض:

"تم العثور عليه، بلا آثار مقاومة ظاهرة، من المرجح أنها عملية انتحار".

وقفت أمامه، لم يكن أبي، كان امتدادًا لحقيقة ماتت قبل مواجهتها، عيناي امتلأتا بالدمع، لكنني حبسته، شعرت بأني أحاول الانتقام منه، لن يراني بذلك الحزن على فراقه، لم ألمس الجثمان أو أقترب منه، لم أسمح لنفسي أن أراقب المشهد أكثر، تركت المكان كما لو أن الأرض تُبعِد قدميَّ عنه، كل ما أعرفه أني وصلت إلى ليڤان، وقبل أن أستوعب، كنت قد مررت بالبوابة، جسدي كله يرتجف، وخطواتي تتسارع هربًا من أي مفاجأة أخرى، ذهبت مباشرةً إلى مخزن قديم خلف الحديقة قد رأيته يومًا ما،

ART_OF_BOOK

حيث تُركت أدوات مهملة لا يقترب منها أحد.

أمسكتُ مجرفًا ثقيلًا -في حال آخر لَما استطعت رفعه حتى من مكانه- وخرجت إلى الفناء الخلفي، إلى المكان الذي يرقد فيه حجر مارال، لم يكن المكان مُضاءً، لكنني أصبحت أحفظ طريقه، كما يحفظ الجسد آثار الندوب.

وقفتُ أمام الحجر، ثم رفعت المجرف بكل ما تبقَّى فيَّ من قوة وضربت، صوت الحجر وهو يتشقق كأنه ذلك الصوت الذي يخرج من صدري، أسمعه بداخلي ولا أستطيع شرحه، ضربة ثانية ثم ثالثة، غبار يتطاير وقطع صغيرة تتناثر حول قدميَّ، لم أفكر.. كنت أبكي فقط وأضرب، كأنني أحاول أن أُخرِج شيئًا محبوسًا تحت الأرض أو تحت جلدي.

كل ما أردته أن أصل إليها، أن أرى مارال، أن أفهم لماذا جاءتني.

جاءني صوت من خلفي:

- نديم، إنت بتعمل إيه هنا؟!

التفتُّ نصف التفاتة، وكنت أعرف الصوت قبل أن أراه، كان عدنان يأتي مهرولًا ناحيتي، عيناه متسعتان، وفمه نصف مفتوح، ظهر مترددًا من أين يبدأ المنع.

أمسك بالمجرف من يدي بقوة وأنزله إلى أسفل:

- سيب يا نديم.. إيه اللي حصل ما.. قلتلك هيتشال بكرة!

لكن يدي كانت مشدودة على مقبضه، لم أعد أريد أن أفلت شيئًا بعد الآن.

ART_OF_BOOK

قلت له بصوت خرج من مكان لا أعرفه في نفسي، ممزوجًا بالألم:

- أنا أبويا مات.

ترك يديَّ ونظر إليَّ نظرة طويلة؛ نظرة أسى عندما أدرك لتوِّه أن ما ظنه تحت السيطرة خرج من يده ويد الجميع.

- أنا آسف، أنا مكنتش أعرف.. اهدى بس...

كنت أتابع كلامي، كان الحديث ضرورة للبقاء واقفًا، أخفضت المجرف واستندت إليه:

- مات بعد ما عرفت إنه قتل أمي وحرمني منها كل ده.

أشرت بالمجرف اتجاه القبر:

- هي ورَّتني ده قبل ما يموت، أنا عايزها بقى تخرج وتفهمني ليه؟ بتعمل كده ليه؟ ما أنا كنت عايش وأنا مش عارف الحقيقة وراضي، دلوقتي عايش وأنا بموِّت نفسي كل يوم من اللي شُفته!

ابتعدتُ خطوةً عن عدنان، وواجهت الفراغ، ارتفع صوتي.. كان قاسيًا.. حادًّا ومختنقًا:

- إنتِ فين، اطلعي وواجهيني، ما إنت دايمًا بتظهري، بتستخبي ليه دلوقتي؟!

كان صوتي يعلو حتى شعرت بأن صدري سيتشقق، عدنان تقدَّم نحوي بخطوات

ART_OF_BOOK

حذِرة، كان يخشى أن يلمس إنسانًا يحترق.

- نديم.. اهدى.

- متقوليش اهدى، إنت أكتر واحد عارف هي بتعمل إيه، خليتك تشوف إيه إنت كمان، مين عندك قتل قبل كده وإنت متعرفش، ولّا تكون إنت نفسك قاتل وسايبها عشان متعملكش حاجة!

وفجأة شعرت ببرودة تتحرك خلف ظهري، كانت مارال واقفة قرب الشجرة الكبيرة، على بُعد أمتار مني، تراجع عدنان خطوةً إلى الخلف بلا وعي، عيناه اتسعتا، لا من الخوف بل لأنه يعرف أن ظهورها يحمل الواقع ذاته كل مرة؛ ظهور حقيقة لا يمكن التعايش معها.

تقدمت أنا نحوها، كانت تطالعني بعينين مكسورتين، تشبك يديها في أدب، وتطأطئ رأسها لي في أسف، وخلفها على جذع الشجرة العتيقة كانت رسمة العين تتكون كما لو أن أحدهم ينقشها الآن، نظرتُ إليها وأنا أركض في اتجاه مارال، وكالعادة ابتلعتني تلك العين ككل تلك المرات التي لم أعد أحصيها.

وفتحت الباب لرؤية جديدة...

الحديقة الخلفية لم تعد حديقة، بل صفحة فجَّة من زمنٍ ماضٍ لكنه التفَّ حولي.

رأيت بيتًا كبيرًا في منطقة هادئة من القاهرة القديمة، الأوراق تشير إلى عام ١٩٤١...

ART_OF_BOOK

في الداخل كانت امرأة شابة مستلقية على سرير خشبي، وعلى يديها طفلة، تتفتح كوردة صغيرة، كان الأب يقف عند رأسها، وجهه مغمور بدموع لم يخجل منها، يمسح العَرق من على جبين زوجته، ويتأمل ملامح طفلته، كأنها أول ضوء يراه في حياته.

سمعته يهمس باسمها... مارال.

كبرتُ معها في لحظة، الرؤية كانت تنقل السنوات كما تنقل الريح الأوراق الخفيفة.

رأيتها تمشي بخطوات صغيرة، تتعلق بثوب أبيها، تضحك حين يرفعها، وتصرخ فرحًا حين يتركها في حديقة المشفى.

تركض بين الأشجار وكأن الأرض كلها خُلقت لقدميها الصغيرتين.

كان أبوها يأخذها إلى عمله كل يوم تقريبًا، يتركها تلعب في مكتبه، تقلب الكتب الكبيرة ببراءة، لا تعرف معناها، وترسم على الأطراف البيضاء، دوائر وخطوطًا غير مفهومة، إلى أن جاء اليوم الذي رسمت فيه لأول مرة.. تلك العين، التي تطارد ليثان إلى اليوم.

كانت ترسمها على حافة دفاترها، كأنها تعرف أنها ستحتاجها يومًا لتعود إليها.

ثم تغير كل شيء.. يوم صيفي، المشفى أكثر ازدحامًا من المعتاد، والأبواب تُفتح وتُغلق مرات، كأن المكان يبتلع كل مَن حوله، كانت مارال وحدها، ترتدي ذاك الفستان الذي لم تخلعه قط، تلهو في ممر جانبي قريب من السلالم، طفلة في السابعة، لا تعرف الخطر، خرج رجل من غرفة قريبة، أحد الأطباء، وجهه بدا عاديًا،

ART_OF_BOOK

لكن في عينيه شيء لا علاقة له بالطب، ولا بالبشر.

توقف أمامها، ثم تكلم معها بصوت هادئ، بسيط مغشوش بملح الود:

"تعالي معايا".

لم تتردد، نفوس الأطفال تُخدع بسهولة، حين تأتي الخديعة على شكل أبٍ مؤقت.

أمسك يدها، قادها إلى غرفة فارغة، بعيدًا عن العيون، أغلق الباب ثم تطلعتُ من النافذة الزجاجية في الباب، الرؤية تقترب، حتى سمعت أنفاسها الصغيرة.

ثم حدث ما لا يمكن وصفه، ولا الهروب من رؤيته، اعتدى عليها.. قتل طفولتها قبل موتها، صدمتُ الباب عدة مرات، كدت أكسر الأكرة، بلا فائدة، صرخت كأن روح ليڤان تداخلت مع روحي.

فتحت مارال الباب محاوِلةً الهروب، ركضت نحو السلالم باكية، دموعها تلطخ خديها، والعين التي رسمتها تهتز أعلى الدفتر الذي بيديها.

ركض الطبيب خلفها، لم تكن تلك نظرات ندم، بل خوف، خوف من انكشافه، من الفضيحة، من أن ينهار كل شيء فوق رأسه، وصل إليها عند الدرابزين، أمسك ذراعيها بقوة، وقبل أن تصرخ رفعها قليلًا ثم حدق في عينيها للحظة، وعند ذلك الحائط القصير الذي أعرفه جيدًا.. دفعها.

تلاقت أعيننا لثانية.. ثانية واحدة كانت كافية، لتخبرني بسبب ما تفعله الآن.

ارتطم جسدها الصغير بالأرض الحجري، بصوتٍ سمعه الجميع؛ صوت عبَر عظامي

ART_OF_BOOK

كما لو أنه وقع داخلي.

ركض الطبيب إلى أسفل الدرج، جثا بجانب الجسد وتظاهر بأنه حاول إنقاذها قبل أن تسقط وهي تلعب وتركض؛ كان جسده يرتجف ليس لأنه فقد طفلة، لكن لأنه نجا بنفسه؛ وبين الحشد ظهر الأب، كان يركض وعيناه تبحثان في الوجوه عن ابنته، عن طفلة يعرف أنها قريبة في مكان ما، ثم توقف...

رآها ملقاة على الأرض، شعرها منسدل، يدها الصغيرة ممدودة، كأنها تبحث عن يده لتمسك بها ولم تجدها.

جلس بجانبها، مد يده إليها بارتعاش، كأنه يخاف أن يلمسها فيوقِظ الألم بداخله، رفع رأسها برفق وضمه إلى صدره، كان يتمتم بكلمات ويكرر اسمها مرارًا ومرارًا، ويحاول أن يضغط عليها.. أن يحركها.. أن يعيد شيئًا إلى داخلها.

حينها رأيت روح مارال، تقف بالقرب من جثتها، كانت تنظر إلى نفسها بوجهٍ يحمل دهشة، كأنها لم تفهم بعد ما حدث، ثم رفعت عينيها ونظرت إلى الطبيب، نظرة وعيدٍ.. وعدٍ بالعودة.. بأن شيئًا في هذا المكان لن يستقيم حتى تُقال الحقيقة كاملة.

رأيته في أماكن عديدة، وليالٍ طويلة، يصرخ يتألم، يتمتم بالأسف ويطلب العفو، يراها في كل مكان ويرى العين في كل انعكاس، ثم تغير المشهد أخيرًا إلى مكان واحد، الطبيب أصبح مريضًا، يجلس في إحدى الغرف في ليڤان، وعندما تدخل الممرضة لإعطائه دواءه يرسم بحبة دواء حمراء العينَ على إحدى الجدران، يهمس بصوت خافت: "هي هنا.. وشايفانا".

ART_OF_BOOK

ثم في لحظة، حملته الريح ليرتطم بالنافذة الزجاجية، ويسقط جثةً في تلك البقعة التي ألقاها إليها يومًا، رحل ولم يترك وراءه تفسيرًا.

ثم ظهرت مارال أمامي تنقل بصرها بيني وبينه، عيناها تحملان حزنًا هادئًا، تنتظر مَن يحمل معها ذلك العبء، هي لم تعُد لتنتقم فقط، بل لتخبرنا بما حدث، وقبل أن تنطفئ الرؤية اقتربت مني، وهمست إليَّ: "احكِ".

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الفصل الأخير

في الليالي التالية لم ينسدل النوم فوق عينيَّ، كنت أغمضهما فأرى سقوط مارال، وأفتحهما فأرى الماء الذي ابتلع أبي وأمي.

مضت تلك الأيام في اختبار لقدرتي على الاحتمال، كان لا بد أن أحقق وصية مارال الأخيرة. وقفت مع العمال في تلك الحديقة الخلفية، يرفعون فوق قبرها لوحة خشبية، صُممت بعناية هادئة تحت إشرافنا، لا تستعرض إنجازات ولا تخفي مساوئ، فقط عليها صورة د. هاكوب ليڤان وزوجته، وتتوسطهما مارال، وتحتها كلمات قليلة مختصرة، كما يجب للألم أن يكون:

«مارال ليڤان ١٩٤١ – ١٩٤٨

طفلة رحلت ظلمًا في هذا المكان، انتهت رحلتها في هذا العالم بسقطة لم تكن قدرًا بل فعلًا آثمًا، ظلت روحًا تتجول هنا، تبحث عن صوت يقول الحقيقة، وقد قيلت بعد ما يقرب الثمانين عامًا...».

وقفتُ أمام اللوحة طويلًا، شعرت لأول مرة بأن مارال ليست لعنة، بل قصة كان يجب أن تُحكى كاملة، وضعتُ باقة من الورد الزهري تشبه فستانها الذي رغم كل ما حدث لن أنكر جماله عليها.

لم يقتصر الأمر على اللوحة وحدها، ففي اليوم نفسه، رأيت العمال يتجمعون عند آخر الممر العلوي، أكملوا بناء نصف الجدار الذي سقطت منه، كانوا يرممون جرحًا،

ART_OF_BOOK

وكلما وُضع حجر كنت أشعر بانطفاء جزء من ذاكرة قاسية حملتها تلك الرقعة من الأرض، كان عدنان يقف بجانبهم ويباشر الأمر بنفسه، أخبرني بأن الحقيقة التي رآها يومًا كانت زوجته التي قتلت والدها خنقًا بوسادة طمعًا واستعجالًا لميراث لم تنَله قط، عاش أرمل بعد أن وجدها منتحرة في بيته متدليةً من السقف مسكورة الرقبة، أخفى ذلك السر سنواتٍ طويلة خوفًا على مشاعر أطفاله، وظل يخبرهم بأن والدتهم لم يأتِ الزمان بسيدة مثلها قط!

أخبرني بذلك السر لأنه أصبح يعلم عني سرًّا مماثلًا له، وبعد أن أخبرني مدَّ يده بورقة صغيرة، ممهورة بختم المشفى، وقال بصوت يشتبك فيه التقدير والتعب:

- إنت عدِّيت تدريبك يا دكتور نديم، وأظن إنك نجحت فيه، دلوقتي إنت بقيت معانا رسميًّا.

كنت أعلم أن ليڤان لا يسمح لأحد أن يبقى عابرًا.

بينما كنت أطوي الورقة، رأيت طيفًا صغيرًا، يعبر الممرات، يركض بخفة لا تترك أثرًا، لم تكن تراني ولا تُلمِّح بشيء، أو ترسم رموزًا.. كانت فقط طفلة سعيدة، أراقبها وهي تختفي وراء إحدى الأشجار، وابتسمت بعد أن أدركت أني فعلت الصواب.

في يومي الأول كطبيب رسمي بليڤان، وعندما اقترب المساء، جلستُ في تلك الغرفة أقلب الأوراق بلا تركيز، حتى دخلت نادرة، وقفت عند الباب مترددة، قبل أن تقول شيئًا، كانت تفحص التعب في وجهي، ثم قالت بصوتٍ خافت:

- إنت... بقيت أحسن؟

ART_OF_BOOK

هززت رأسي في محاولة تمثيل فاشلة:

- أحسن.

- مش حابب نخرج؟

قالتها وهي ترفع حاجبيها إلى أعلى في حماس.

- كفاية...

أطلقتُها وكأني أرد على شيء قيل في رأسي.

- كفاية إيه؟

- نادرة.. بعد كل اللي حصل ده، أنا اكتشفت إني مبقتش لوحدي، أنا أصلًا كنت لوحدي طول حياتي، وأي حاجة حصلت السنين اللي فاتت كانت كدبة، أنا فيه سنين كتير أوي معيشتهاش، وجيه الوقت عشان أبدأ أعيش، أبني حياة حقيقية. من غير كلام كتير.. نادرة إنت عارفة إني بحبك...

عيناها اتسعتا قليلًا، ثم هبط بصرها إلى الأرض كمن يبحث عن مساحة يهرب إليها، وضعت خصلة سائبة خلف أذنها بحركة مرتبكة، وابتسمت ابتسامة تشبه امرأة تحاول أن تخفي فرحًا لم تستعد له، استغللتُ تلك الحالة وأكملت:

- ومش عايز أضيع وقت تاني وأنا ممكن أعيش معاكي الباقي، أنا تقريبًا مبقتش فاكر غير الأيام اللي إحنا قضيناها مع بعض، وعايز أبني ذكريات كتيرة زيها السنين الجاية

ART_OF_BOOK

عشان أعوض اللي فاتني.

كان وجهها يزداد احمرارًا مع كل كلمة، ارتفع صدرها بنفَس قصير.

- قلتِ إيه؟

انتقلت عيناها بين عينيَّ، ونبرة صوتها بالكاد تُسمع:

- إحنا مش كنا معارف من فترة، ولسه مبقيناش صحاب؟

- دلوقتي مفيش لا معارف ولا أهل ولا صحاب، هتتعبي كتير عشان تملي كل الفراغ ده.

ضحكت وأشاحت ببصرها مرة أخرى وكأن النظر إليَّ كان حِملًا في تلك اللحظة.

جمعَت الملفات من على الطاولة بسرعة، وبحركة مرتبكة أقرب إلى الدفعة الخفيفة منها إلى التقدم، ضغطت بها على صدري، وقالت بنبرة مرتعشة:

- شوف شغلك الأول عشان أنا مش هقبل إني أبقى أقدم منك وأشطر كمان!

ثم أدارت ظهرها فجأة وكأنه الاعتراف الذي لم تقُله، هرولت إلى الخارج؛ كنت قريبًا جدًّا من أن أمسك بها، لكنها كانت أسرع، وقفتُ في مكاني، الملفات على صدري، التقطتُ أول ملف من أعلى هذه الكومة، جلست على الكرسي، وببالٍ مشغول وابتسامةٍ بلهاء رُسمت على فمي، تفحصته في شرود، فتحتُ الغلاف البُني للحالة الأولى، لمحته قبل أن أفهم:

ART_OF_BOOK

اسم المريض: لديم البكري

العمر: ٢٨

الحالة: هلاوس بصرية وسمعية متكررة، اضطراب إدراكي مصحوب بانفصال عن الواقع.

النهاية...

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK